امرأة الحب والمطر



امرأة الحب والمطر

خديجة أحمد

امرأة الحب والمطر

تأليف : خديجة أحمد

الطبعة الأولى : عام ٢٠٠٤

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان

التنفيذ والطباعة:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي :

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

دمشق – سوريا

هاتف : ٥٦٢٧٠٦٠ – فاكس : ٥٦١٣٢٤١

ص . ب : ٣٠٥٩٨

الإهداء

إلى أمي الغالية ...

التي علمتني كيف يتفجر الصمت المتأمل ،

إلى ..

أحلى الكلمات ...

إلى أخي الحبيب ...

الذي يحترف الكرم ،

ويتقن فن السخاء،

بلا حدود

إلى أحبّتي ...

الذين رافقوني في تجربتي هذه ...

منذ فجر خطوتها ،

الأولى...

المؤلفة



تحوّلات شرسة !

ارتعشت أصابعه على المطرقة الحديدية، تردد قبل أن يطرق الباب، إنها الساعة الثانية بعد الظهر، غالب تردده، جمع شتات نفسه، قبض على الحلقة بقوة، وطرق على الباب مرات عديدة..

من فرجة الباب اطلَّ رأس مكوّر أشعث ذو وجه متنافر القسمات لصبي في العاشرة من عمره، قبل أن يفتح فمه بادره الصبي

- يقول لك أبي تفضل.

دخل الغرفة، تهاوى على الأريكة المهترئة، اخذ يجيل طرفه، ليس فضولاً فهو يعرف المكان جيداً لكنّ نظراته الحائرة تأبى الاستقرار إلى أن استوقفتها السجادة المعلقة على الحائط أمامه. ياله من منظر !! أشخاص بهيئات وأشكال غريبة قاسية يطاردون بوحشية غزالاً شارداً، والحيوان البائس يختبئ فزعاً خلف جذع شجرة، ركّز نظره على عينيه الزائغتين فأحس إنه مطارد، ومحاصر مثله قد سُدَّت أمامه مسالك النجاة..

من الخارج انتهى إليه صوت جاره بنبراته المتحشرجة، قبل أن يدخل عليه بقوامه الممتلئ القصير ووجهه الذي يبدو نسخة من صورة عتيقة لوجه طفله :

ـ أيها الرجل، لماذا لم تدر المروحة ؟

انتبه إن العرق كان يتصبب منه بغزارة وإن هناك بقعاً مبتلّة كانت تظهر بوضوح على أماكن متفرّقة من ثوبه، لقد اشغله همّه عن التفكير بحرارة الجو في هذا الوقت من النهار.

ـ لماذا أنت قلق هكذا ؟ اطمئن واعتبر الوظيفة في جيبك.

ـ لقد تأخر الرد عليّ كثيراً.

اعتدل الجار في جلسته ليبدو عليه سيماء الرجل المهم، صاحب الكلمة النافذة، والشفاعة المؤثرة :

ـ المدير مشغول جداً، ألا توجد لديه مشاغل سوى التفكير بمشكلتك ؟!

ـ ولكنك تعلم واقع الحال عندي، أراد أن يسترسل في الكلام غير إنّ الجار حسم الأمر :

ـ قلت لك اعتبر الوظيفة في جيبك.

غادر الرجل، لم يكن في مقدوره سوى الصبر والتعويل على وساطة جاره، لعلّ مشاغل المدير تنتهي قريباً.

لم يعد إلى البيت، فلا ينتظره هناك سوى ثرثرة زوجته التي لانتهي، ستعيد على مسامعه كل الهموم التي يعرفها، ستجترّها واحدة بعد الأخرى بدون كلل، ستتحدث عن أرضهم التي

صودِرت، نعم صودِرت، قالوا له أنها ليست أرضه، إلى الآن هو مندهش، حد الذهول، لا يستطيع أن يستوعب الأمر جيداً، كيف إن الأرض التي ألقمها سنوات عمره، وسقاها ماء وجوده ليست له، ولم تكن لأبيه من قبل، إنها تعود للحكومة ! هكذا قالوا له عندما جاءوا بأشرطتهم ومساطرهم واخذوا يقيسون أبعادها، قالوا أنهم سيبنون عليها داراً للضيافة !!

فزع إلى جاره الذي كان أعلم منه بهذه الأمور، فردّ عليه محدداً أبعاد مشكلته وخطورتها :

ـ إذا كانت الأرض للحكومة فماذا ستفعل ؟ هل ستقف بوجه الحكومة أيها المسكين ؟!

إلى الآن لا يستطيع أن يفهم ! لماذا تُقطع أشجار الرّمان والتوت وتُكتسح الكروم، وتُجتث النخيل الباسقة من اجل شيء اسمه دار للضيافة ؟!

عندما مرّ يوماً أمام أرضه ووجد آلاتهم تطيح بالمثمرات من أشجاره سقط مغشيا عليه !!.

حدّث نفسه وهو يهيم على وجهه تحت شمس الظهيرة :

يجب أن احصل على هذه الوظيفة، ليس من اجلي بل من اجل ((**هديّة**)) البائسة !

((**هديّـة**)) ابنتـه الوحيـدة أكثـر مـا يوجـع فـؤاده مـن بـين مآسيه، هذه المسكينة التي ضُرِب حولها ستار من الصمت، لقد أدرك وهو الفلاح الأمي إنها لم تكن كسائر الفتيات، تعتقد أمها أن مساً من الشيطان قد أصابها، مرض لا يمكن لدواء المستوصف المجاني أن يشفيه، وعندما رأى جاره وضعه البائس المريع تطوّع في أن يتوسط له عند المدير ((صديقه)) كي يجد له عملاً، بالرغم إنه لا يتقن في حياته سوى أن يكون فلاحاً.

في يوم الوظيفة الأول وجد أن عليه أن يخلع ثوبه، ويرمي بكوفيّته وعقاله ليرتدي بنطالاً وقميصاً، وان يمسك بمكنسة وفوطة بدلاً من فأس وجاروف، كان عليه أن يعمل فرّاشاً، ينظف مكاتب الشركة وممراتها ومرافقها المختلفة، وبدلا من جلوسه في وقت استراحته تحت ظل أشجاره يستاف رائحة الأرض الخضراء والتربة الندية، جلس على كرسيه الخشبي في نهاية الممر المعتم تختنق أنفاسه برائحة عرق الموظفين والمراجعين ودخان سجائرهم، ورائحة طلاء الجدار..

هناك أحس الرجل المسكين أن الدنيا نفق مظلم بارد ليس فيه نور ولا هواء وأن الأرض لا تنبت عليها شجرة رمّان أو كرم أو نخلة واحدة...

صراخ الصمت...

ماذا يمكن أن يتصور من يراه، وهو يرتدي بدلته الكاملة الداكنة في الأوقات كلها ؟ وأي انطباع سيتركه في أذهانهم بربطة عنقه التي لا يتخلّى عنها مهما كانت الظروف الجوية، وحقيبته السوداء الشبيهة بتلك التي يحملها رجال الأعمال والمحامون والتي كانت لا تفارقه أبداً؟.

تُرى ما عمله ؟ لا يمكن أن يكون موظفاً ! فهو دائم التواجد في الحي نهاراً، وعند المساء كان يجلس في المقهى الصغير على ناصية الشارع، حقيبته فوق ركبتيه، ونظراته الغائصة بين سطور الجريدة لا تقرأ من كلماتها حرفاً..

ذلك الرجل الأربعيني، لم يستطع منظره وسلوكه الغريبان إخفاء ما كانت تحمله ملامحه المتأملة الحزينة من وسامة وملاحة. لقد عاش بين أهل الحي فكان أقلّ ما يثيره فيهم الفضول إن لم يكن الاستغراب وربما السخرية والتندّر ولو بصورة غير معلنة، نعم كاد الفضول أن يقتلهم ليعرفوا حقيقته وأكثرهم حذراً كان

يتجنّبه بشدة ـ بالرغم من انه لم يكن يخالط أهل الحي إلاّ بأقلّ الحدود ـ وذلك خوفاً من أن يكون مخبراً أو مندسّاً بينهم لأغراض معينة..

كان غضبهم ولومهم منصبّاً ً على مالك الغرفة التي استأجرها فهم لم يألفوا الغرباء في حيّهم، الجميع يعرفون بعضهم وربما لأكثر من جيل، ولكن صاحب الغرفة لايهمه سوى الإيجار الشهري الذي يقبضه من غرفته الحقيرة والتي يئس من احتمال استثمارها يوما ً من الأيام..

بعد أن ألفوا وجوده، لم يعد منظره المُستهجن يثير استغرابهم، بدأت الهمهمات تختفي والابتسامات الساخرة تتلاشى، وكاد أن يصبح الأستاذ ((ياسر)) ـ وهو الشيء الوحيد الذي عرفوه عنه - واحداً من معالم الحي المعتادة لولا ما حصل ذلك اليوم !!!

يبدو إن حرص الأستاذ ((ياسر)) المبالغ فيه على حقيبته قد أوحى لبعض الفتية الطائشين أن بها صيدا ً ثمينا ً فترصّدوا له يوما وقطعوا عليه الطريق في عملية سطو جريئة وسافرة وأمام عيون أهل الحي مستغلّين وحدته وغربته واستهانة الجميع بأمره، شاغلوه، بينما خطف أحدهم الحقيبة من يده ولاذ بالفرار. حينها وقع ما أذهل الجميع ! فقبل أن يفيقوا من صدمة السرقة فوجئوا بما زادهم ذهولاً !!

السارق الذي لم يكد يبتعد أمتار عدة حتى تعثّرت قدمه وسقط، رُميت الحقيبة بعيداً، فُتحت، وتناثرت محتوياتها..

نظر الجميع لتلك المحتويات التي طالما أثارت فضولهم، والتي حرّكت خيال السرّاق وأطماعهم، تلك المحتويات لم تكن سوى أوراق !! أوراق.. بيضاء خالية !!!.

للحظات بدا كأن كل شيء قد توقف، الأحداث والزمن، الجميع متسمرون تعقد الدهشة جوارحهم، اصبح الجميع لوحة جامدة، لم يُكسر طوق الجمود إلاّ صبي في الثالثة عشر تقدم بتأثر بادٍ وأخذ يجمع الأوراق المتناثرة..

عندها أفاق الجميع، تراكض اللصوص، وأما الأستاذ ((ياسر)) فقد انحنى أمام الصبي واخذ يتناول الأوراق من يديه ويعيدها إلى الحقيبة..

وحتى يكتمل المشهد الخرافي ويستحوذ مجدداً على عقول المراقبين وعواطفهم أخذ الأستاذ ((ياسر)) يبكي بكاء مكتوماً مخنوقاً، ثم راح ينشج بحرقة وانكسار، بعدها حمل حقيبته وتوارى في أقرب زقاق..

في اليوم التالي لم يشاهده أحد، اكتشف صاحب الغرفة أنه غادرها تاركاً متاعه المتواضع، لم يحمل معه سوى حقيبته السوداء..

اختفى من الحي تاركاً ذكرى شخصه الغريب ومشهد السرقة الذي ظلّ حديث الناس طويلاً، بعضهم تندّر بشكل لاذع، المثقفون منه حاولوا تحليل شخصيته، أطلقوا عليها اسماً أو وصفاً معيناً، من يصفون أنفسهم بالحكمة والتعقل أرادوا أن يضيفوا على شخصيته الغامضة بعداً آخر..

ومع الأيام بدأت صورة الأستاذ ((ياسر)) تتلاشى من ذاكرة الحي، وعاد صاحب الغرفة يلتمس لها مستأجراً جديداً يدفع الأجرة ـ ولو كان معتوهاً - ..

النسيان.. لابد أن تطال بصماته الثابتة ابسط الأحداث وأكثرها غرابة. فما الذي حدث ليجعل تلك الذكرى تتحدى النسيان وتنتفض معلنة صحوتها من جديد ؟!

الشخص الذي جاء يسأل عن الأستاذ ((ياسر))، قال إنه صديقه، لهجته جادة، ولهفته واضحة، واهتمامه بيّن، أسف كثيراً عندما علم بوصوله متأخراً، سمع بحادث السرقة، قصّوه عليه وفي أعين البعض نظرات تنطوي على السخرية، وأعين أخرى كانت تنظر إلى الغريب متسائلة تنتظر منه ما يحل اللغز الغامض..

أنتم لا تعرفون الحقيقة ! قال الرجل، يبدو في أعينكم مجنوناً، ربما يكون كذلك، لكنكم تجهلون ما الذي أوصله إلى ذلك المصير!.

كـان موظفـاً مهمـا في إحـدى الـشركات الكـبرى، أمانتـه وجدّيتـه خلقتـا لـه أعـداء مـن ذوي المطـامع والمـآرب اللامـشروعة، أرادوا إزاحتـه عـن طـريقهم فـدبّروا لـه مكيـدة، سـرقوا منـه ملفـات ووثـائق مهمـة كانـت في عهدتـه، اتّهـم بالـسرقة والتبديـد، وحُكـم عليـه بالـسجن.. لم يـتمكن مـن الـدفاع عـن نفـسه بعـد أن أحكـم المتآمرون وضع مخططهم الخبيث، وفي السجن اختلّت قـواه العقليـة وقضى بقية مدة الحكم في المستشفى. عنـدما خـرج أصـبح حريـصاً علـى حمـل حقيبتـه، إنـه يخـشى المتـآمرين، أولئـك الـذين حطّمـوه، وسرقوا شبابه ومستقبله، وزرعوا في أعماقه خوفه الأبدي..

هـذه المـرة لـن يـستطيع أهـل الحـي نـسيان الأسـتاذ ((ياسـر)) بـسهولة، قـسماته الغارقـة بحـزن صـامت سـتلازمهم طـويلاً، لـن يبتـسموا سـاخرين كلمـا تـذكروه حـاملاً حقيبتـه الـسوداء لقـد أدركـوا بعـد أن عرفـوا مأسـاته إن بعـض الابتـسامات ربمـا تكـون طافية على بحر من الدموع...

المنعطف

ظلّ صوت جرس الهاتف يلاحقها بإلحاح، كالعادة لا تشعر برغبة في الرد.

لابد إنها أمها، فبعد عن اعتزلت الآخرين وانزوت داخل دائرة الصمت بقيت أمها الوحيدة التي تحاول بإصرار إخراجها من وحدتها وانطوائها، تتصل بها كل يوم تقريباً، تفتعل الحديث معها تسألها أسئلة معهودة :

- ما أخبارك ؟، كيف حال الأولاد ؟

أحيانا ولتُمطّ الحديث المنكمش تسألها :

- ماذا طبخت اليوم ؟، هل تودين الخروج للتسوق؟.

رفعت السمّاعة، كان صوتاً آخر قفز من خلال الأسلاك، طوّق عنقها وقبّلها، لم يكن مألوفاً تماماً، لكنه ليس غريباً، إنها تعرف هذا الصوت عليها إن تغوص في ذاكرتها لاستخراجه.

قفز الصوت مرة أخرى :

- هناء.. كيف حالك ؟ ألم تعرفيني ؟ احزري إذن من أنا ؟

ليست في وضع نفسي يساعدها على الاستمرار في لعبة الأحاجي، منذ زمن فقدت مزاجها الطلق كما فقدت أشياء كثيرة أخرى، هذا الصوت الحيوي السعيد هل تنكّرت ذاكرتها له ؟! هل تأبى استعادته من خلف ستار النسيان ؟.

- أنت !!

الذاكرة لا تخونها، ولكنها لا تريد أن تصدق إنها هي، كيف تفجّرت الآن في صحراء حياتها التي ألِفت الظمأ والتيبس، هل ستسعد الأرض التي أنهكها العطش بالماء مرة أخرى ؟!

- أنت حنان !!

قالتها بحشرجة، ابتلعت ريقها فابتلعت معه الحروف، كانت تود البكاء.

أجاب الصوت صارخاً بسعادة :

((لقد تذكرتني أيتها الشقية، كنت واثقة إنك لم تنسيني بالرغم من السنوات العشر..))

نستها أو على الأقل كانت تودُّ ذلك، كما كانت تود نسيان أشياء كثيرة لم تعد ضرورية، الماضي لم تعد له أهمية الآن بعد أن سحقه الحاضر من الخير لها أن تغرق نفسها حتى تفقد الوعي فلا تشعر بفداحة الوضع الذي تعيشه.

عليها نسيان الماضي، وتجاهل الحاضر وعدم التفكير في المستقبل فقد يجعلها ذلك تعيش بسلام ولو زائف..

أعادها الصوت إلى لحظتها الحاضرة المتفجرة بالمفاجأة:

ـ أريد أن أراك يا هناء، بالأمس قدمتُ من السفر أنت أول من اتصلتُ بها من الصديقات...

لماذا يا حنان ؟!!

لقد وأدتُّ الماضي بكل تفاصيله، حفرت قبراً كبيراً ورميت فيه ذاتي وكينونتي بكل متعلقاتهما، أهلتُ عليها التراب وأعفيت الأثر لم أضع شاهداً، أردتُ أن يضيع كل شيء ويختفي..

كيف بُعِثتِ يا حنان، كيف تسللتِ إليّ وأقحمتِ نفسكِ مرة أخرى في حياتي المقفرة ؟!

انتهت المكالمة بعد تحديد موعد اللقاء، عادت هي إلى وحدتها ومع الصمت كان هناك ضجيجٌ يعلو ويتفاقم داخلها..

إلاّ حنان، حنان بالذات لا تريدها أن تراها في هذا الوضع الذي خدع الكثيرين من الحمقى..

فمع البيت الفخم الواسع والحياة المترفة والسيارة الفارهة، والزوج اللماع المُنشّى بطريقة مُتقنة يمكن أن يحكم الآخرون بسهولة على حياتها بالسعادة، أما حنان فلن يخفى عليها الأمر ستقول لها بعد دقائق من اللقاء :

ـ هناء أنت تعيسة في حياتك، ما الأمر ؟!

حنان مرآة روحها الصافية، ستعكس صورتها بكل عيوبها وقبحها، سترى فيها المسخ المشوّه الذي تحولت إليه..

لقد أخفت هذا المسخ عن الجميع، وتركت المخدوعين تخطف أبصارهم حياتها البراقة المزيفة ولكن ماذا ستفعل مع حنان ؟ الحياة فرّقت الصديقتين، شطرت كياناً متوحداً إلى شطرين وجرفت كل واحد في طريق منفصل، حنان سافرت مع زوجها للدراسة والعمل، وهي.. تزوجت رجلاً في رأي الكثيرين قمة الأحلام والتطلعات. بعد أشهر اكتشفت الأكذوبة، بعدأن تمزّق القناع الخادع، سقطت في الهوّة السحيقة بين الأفكار والتصرفات، بين الحلم والواقع.

أذهلتها آراؤه التي لم يعرفها أحد سواها ! فيها وفي الحياة، الرجل الذي ارتبطت به والذي عليها أن تمضي رحلة الحياة معه حتى آخر خطوة، هو باختصار ((كارثة))، الزوجة في نظره متاع ينفق عليه بسخاء ليجده حاضراً بين يديه متى أراد، فالتي تفكر متعبة، والتي تبدي رأياً وتناقشه لجوجة وسليطة اللسان وغير مؤدبة، التي تخالط الآخرين وتنشئ صداقات فارغة ومقصّرة في واجباتها، والمتعلمة متحذلقة ومغرورة و و...

في رأيه على المرأة أن تكون أنثى فحسب، وأن ترضى بذلك قدرا لافرار منه وأن تستمتع بذلك وتترك زوجها ليستمتع به فلا تطمع أو تحلم بأكثر من ذلك..

في البداية حاولت المقاومة، دافعت عن كيانها ووجودها، تصدّت له بشدة، فكانت السخرية والاستهزاء والتهكم ـ حتى أمام الآخرين وسائل واجه بها أسلحتها ودفاعاتها لقد سحقها بسهولة وبضمير مرتاح حطم كبرياءها وعلّمها فن الصمت..

ومع الوقت نسيت أنها متعلمة، تجاهلت ثقافتها وشخصيتها التي اعتزت بها طويلاً، أصبحت كائناً آخر، وعندما كانت تنظر لصورتها في المرآة كانت ترى امرأة لا تعرفها فقدت ـ بنظرها ـ حتى أنوثتها وجمالها وأصبحت شيئاً من الأشياء لا غير..

أخذت تدور في البيت الساكن، يطحنها التفكير ويذرها في الهواء، خرج من داخلها المسخ المشوه، طاردها واخذ يحاصرها. للمرة الأولى تكتشف مدى قبحه وبشاعته.

لماذا لم تهرب ؟.

لماذا ارتضت أن تستمر المهزلة واستكانت بهذا الشكل المروّع ؟

دور المرأة الذليلة المهزومة لا يناسبها فمن اجل من استمرت في أدائه؟!

صوت حنان بحيويته وعفويته يعلو ويعلو، ضغطت رأسها بين راحتيها تريد إسكاته، وربما إسكات السؤال الذي راح يطنّ ويطنّ في رأسها بلا توقف : لماذا لم تهرب ؟!

وقعت عيناها على صورة لطفلين صغيرين على المنضدة.

كيف تهرب وهذان السّجانان يقفان على باب زنزانتها؟

ينظران إليها بوداعة آسرة لتعود بعدها على قعر زنزانتها تفتت أقوى رغباتها في المقاومة، تنطوي على آهاتها وتبدأ بنسج شرنقتها من جديد..

عادت تدور والحيرة تمزق روحها، سمعت صوت انهيارات متتالية في أعماقها، وأنقاض تعلو لتسدّ عليها منافذ النور والهواء. كانت نحلة ضلّت طريق عودتها، ولكن هل يظل النحل تائهاً طويلاً ؟.

هل من الصواب أن تقدم إنسانيتها قرباناً على مذبح الأمومة؟!

الإنسانية المسحوقة والأمومة المحطّمة لا تقدمان العون لأحد !.

طفلاها غدا لن يسامحاها، سيفطنان وشيكا للمسخ المشوه الذي تحمله في أعماقها، سينظران إليه باشمئزاز وتقزز وسيفران منه بعيداً، وعندها ستجد نفسها قد خسرت كل شيء...

عليها تخطّي أسوار هذه القلعة المسحورة بالصمت لتهرب بإنسانيتها وبطفليها، للمرة الأولى تراهما ضحيتين مثلها، عليها أن تأخذهما بعيداً إلى أرض تزورها الشمس ويسكنها هواء نقي معطّر بالحرية..

أحست بالاختناق، وأنها تشرف على الغرق بعد أن غادرت الأنفاس دماءها، عطشت روحها للخلاص، عليها الإسراع في خطوتها الأولى فالغريق لا يمكنه أن ينقذ أحداً، أو يهب الحياة لأحد..

دوّى صوتها عالياً يتحدى صمت السنوات العشر :

ـ لا يا حنان، يا صديقتي الغالية، لن تريني بهذا الوضع، ولن تنعكس في مرآة عينيك الصافيتين صورة مسخ قزم مشوّه، أنا صديقتك التي تعرفين، أنا إنسان يعشق إنسانيته،

أنا امرأة ولست شيئاً من الأشياء...

الرسـالـة

في عصر ذلك اليوم الربيعي كانت الأجواء تفوح برائحة الموت والبارود، بدل رائحة طلع النخيل وخضرة الحقول، وبعد يومين من سكوت الإطلاقات النارية التي كانت تأتي من بعيد، يؤذن الصمت بسقوط آخر المقاومين، فارتفع صوت الضفادع يصم الآذان منبعثاً من البرك الراكدة الموحلة.

الربيع.. الذي يأتينا كل عام بالبشر وتدب الحياة في عروق الأرض الهامدة, لايأتي هذا العام سوى بالحزن والحداد، فلا عجب أن يشعر القلب بكل هذا الضيق والانقباض وكأني عائدة من موكب جنائزي شيعت فيه آمالاً ودفنت أمنيات.

هذه البركة لم تكن آسنة المياه هكذا دائماً، تغطي وجهها طبقة سميكة خضراء، لقد كانت فيما مضى ساقية ماء عذب يأتيها المدّ كل يوم من الشط الكبير حتى تفيض جوانبها، لقد كانت أمي وفي ساعات الصباح الأولى تنزل إلى شريعتها المرصوفة بالصخور اللزجة لتملأ جرارها قبل أن يعكر صفو الماء معكر

وذلك بعد أن تكون قد أشبعت تلك الجرار دعكاً حتى تصبح جدرانها رقيقة كورقة الخريف يهشمها أدنى لمس، فلا أحد في قريتنا يدعك جراره كأمي ولا أحد يستهلك جراراً مثلها. أما اليوم فقد أصبحت بركتنا مجرد حفرة ماء وطين بعد أن رُدمت السواقي التي كانت تغذيها بالماء والحياة

في عصر ذلك اليوم جلست تحت شجرة التين القريبة من بيتنا أراقب بفتور البراعم الخضراء التي بدأت تغزو سيقانها الجرداء، بينما كانت أمي في ناحية من الدار منهمكة كعادتها في عملٍ ما، فهي كعاملات النحل لا تتوقف عن الدوران، وفي اللحظة التي تكف أجنحتها عن الطنين تكون قد لفظت آخر أنفاسها.

أنا وأمي وحدنا في الدار، بل وحدنا في قريتنا الصغيرة بعد أن لاذ سكانها بالفرار ويبدو لي وكأننا مزروعتين هنا منذ عهود سحيقة، هكذا توقف إحساسي بالزمن، هي تعمل دائماً وأنا أراقبها أبداً.. بقامتها الفارعة التي تبدو الآن أكثر طولاً وأشد نحافة ووجهها الأسمر الذي لوّحته شمس الحقول وعينيها الكحيلتين اللتين تنطويان على بحور من الحزن الصامت الذي لا يسبر غوره..

كنت وحيدتها وآخر قطاف شبابها، فرعتني بكل ما ولّدته سنوات الحرمان في كيانها من حنان ولهفة فلا عجب إذا كنت أول أنثى في القرية تدخل المدرسة، كانت تحملني إلى القرية

المجاورة حملاً وعندما كانت تتركني على باب المدرسة الخشبي كنت أتعلق بأذيالها باكية فكانت تمسح وجنتي المبتلة بأناملها الخشنة وتمسّد ضفائري

قائلة :

- ستتعلمين القراءة والكتابة، ستكونين أفضل مني.

ثم تدس في إحدى كفيّ قطعة نقدية وفي الأخرى لفة خبز دهنتها بالسمن والسكر.

أمي لم ترزق سواي، ليس لأنها لم تلد سواي، فلقد وضعت الكثير حتى ضاع عليها إحصاؤهم، كانت تلدهم أصحاء أقوياء يملأون الدنيا صراخاً ويركلون الهواء بأرجلهم الحمراء، لكنها كانت تواريهم الثرى بعد أيام، لم تكن هي المخطئة، كانت واثقة من ذلك، إن وراء الأمر سراً عليها اكتشافه ولغزاً عليها حله وعندما يتكشّف لها الأمر لن تسمح أن يحصل لامرأة أخرى ما حصل لها.

لذا لم يكن غريباً أن تسير بعد ذلك عدة كيلومترات قاصدة المركز الصحي في القرية المجاورة لاتمنعها شمس الصيف بحرارتها القائضة ولا تعيقها أمطار الشتاء وبرودته القارصة، وهكذا أصبحت القابلة الوحيدة في القرية بعد أن أتقنت فن استقبال الحياة، وهكذا أصبح بابنا يُطرق في كل آن لتخرج مسرعة وأنا اركض خلفها متعثرة بثوبي أُغالب النعاس معلّقة على كتفي

حقيبة قماشية طرّزتْ عليها يد بدائية تفتقر للمهارة اسم الجلالة بلون أحمر صارخ، حيث كانت تحتفظ أمي بعدتها ، وكم نبحتنا كلاب البساتين ونحن في طريقنا لتلك البيوت الراقدة في غياهب الظلمة ، وكم استغرقت في النوم وأنا أسمع صراخ الألم وأنين الأوجاع، وكم سمعت لعنات التذمر والإستنكار لأُنثى ولدت في وقت غير مناسب أو أفقت على زغاريد الأفراح مبشّرة بصبي طال انتظاره لتكافأ أمي بعدها بسخاء كما لو أنها قد أخرجته لهم من جرابها القماشي.

في عصر ذلك اليوم قالت لي دون أن تلتفت ودون أن تترك يداها ما كانت تعمل :

ـ لن نأكل تمرة واحدة هذا العام، فهذه النخلات لن يلقحها أحد.

كانت تخرج كل يوم لتسير ما شاء لها السير تتفقد من يكون قد عاد من الجيران ثم تعود خالية الوفاض.

نخلات خمس هي كل ما تبقّى من نخيلنا التي أُحرقت وسُلب منها نبض الحياة، احتطبوا بعضها وبعضها لا يزال منتصباً خاوياً على عروشه تعبث الريح بما تبقى من سعفاته العجفاء وعراجينه الخاوية يحكي قصة اغتيال الحياة والخير والعطاء.

لقد هرب الجميع من القرية عوائل وأفراداً عندما دخلها الجنود فرّوا إلى جهاتٍ شتى إلاّ نحن الاثنتين. عندما اقترب الجنود

دخل علينا جارنا أبو محمود والفزع ينطق من أدق أساريره، قال بصوت يقطّعه اللهاث :

- علينا مغادرة القرية يا (أم فاطمة) وعليكما مرافقتنا إذا شئتِ.

ولكنها رفضت مغادرة بيتها وأصرت على البقاء فليس من الحكمة في اعتقادها أن يغادر المرء بيته ويتوجه إلى المجهول.

كم كان بودي أن أرافق القوافل النازحة ، أن ألقى ما ستلقاه من مصير ولكن أمي حسمت الأمر قائلة :

- من الأفضل لنا البقاء في بيتنا، فنحن لا نعلم ما سيواجهنا في الخارج، لدينا هنا بعض التمر والطحين وحولنا الكثير من الحطب، فرددت عليها :

- والجنود.. ماذا لو حضر الجنود ونحن وحيدتان ؟

فردت بحزم :

- لا تخافي سنختبئ في مخزن التمر.

ودخل الجنود القرية بأسلحتهم المشهورة يقتحمون المنازل ويحطمون ما يلاقونه في طريقهم، فسحبتني بشدة.. لم أكن أتصور أنها بهذه القوة والصلابة فلم أكن أسير على قدميّ كانت رجلاي تخطان الأرض خطاً، دلفنا إلى المخزن فدفعتني إلى قاعه المظلم حيث كانت أكوام البواري مكدسة، قبعنا خلفها كجرذين مذعورين، حبسنا أنفاسنا ونحن نسمع وقع أقدام الجنود

مختلطة بصراخ وشتائم وإطلاق نار ، ولم يعثروا علينا ، قال أحدهم بصوت متحشرج مبحوح وهو يولي مبتعداً :

ـ لا أحد هنا يا سيدي لقد فتشنا المكان جيداً.

وأخذت أسائل نفسي منذ متى أصبحت رؤية الجندي تزرع في القلوب مشاعر الرعب والخوف ؟ أول جندي رأيته وأنا صغيرة كان محمود ابن الجيران عندما دخل بيته مزهواً بلباسه الخاكي وقد أمال البيريه على صدغه باعتزاز وفخر ووقف وسط الدار جذلان لا تكاد تحمله قدماه بينما راحت أمه تنثر الحلوى على رأسه وتملأ الدنيا بزغاريدها ، ونحن الصغار نتقاتل تحت الأقدام لنجمع ما يقع على الأرض من حلوى غير عابئين بما انداف معها من تراب وطين. وبقي محمود كل يوم يقطع الطريق من بيته إلى وحدته جيئة وذهاباً ، يمشي بين الحقول مختالاً يحاول إيقاع كل فتاة يقابلها بشباك فتنته وجمال لباسه بعد أن زينت أمه صدر المضيف بصورته العسكرية ، واليوم أصبحت رؤية الجندي بلباسه القاتم وسلاحه المصلّت نحو الآخرين رمزاً للموت والقتل والوحشية.

وتستمر أمي كل يوم في رحلاتها تبحث عن جار قادته قدماه لرحلة العودة للديار وهاجسها الوحيد من سيلقّح النخلات هذا العام بينما أهيم على وجهي هنا وهناك يطحن الفراغ نهاري وتطارد الكوابيس ليلي.

في ذلك اليوم وبينما كنت أسير على غير هدى، دخلت أمي مخزن التمر ومن هناك انطلق صوتها تنادي مستغيثة بلهجة ابتلع الخوف والدهشة نصف حروفها، ماذا وجدتْ هناك جعلها تصرخ بهذه الكيفية؟ ؟

يا إلهي.. هل عاد الجنود مرة أخرى ؟هذا ما استبق إلى ذهني، وأسرعت إليها وقد انخلع فؤادي خوفاً وهلعا حيث وجدتها منكفئة على شيء لم أتبينه وقبل أن تقع عيناي عليه سبق إلى أذنيّ صوت غامض كان صوت أنين متقطع مكبوت.

- رباه.. إنه..إنه رجل جريح..

ومادت الأرض تحت خطاي وكدت أفقد وعيّ لمنظره ,فأنا لم أر في حياتي كل هذه الدماء التي اصطبغت بها ثيابه وقد غطت نصف وجهه الشاحب النحيل لحية كثة أمّا عيناه فقد كانتا مغمضتين.

تهاويت إلى الأرض وسؤال واحد يلحّ عليّ :

- أهو حي؟ أهو حي؟

أيمكن أن يبقى حياً وقد نزف كل هذه الدماء ؟

ومن دوامة اندهاشي وذهولي ثبتُ إلى رشدي على صوت أمي القوي الواثق :

- علينا إدخاله إلى الدار.

واستأنفتْ كلامها وهي ترى إمارات الدهشة والتساؤل مرسومة على وجهي.

ـ سنضعه على بارية ونحمله فلعلنا نستطيع إنقاذه، ثم قامت وبلا تردد وفرشت إحدى ألبوا ري المركونة جانباً وبصوت حازم قالت :

ـ احملي من ناحية الرجلين، وأنا أحمله من الكتف.

وبجهد لا يوصف وضعناه على البارية وقد فتح عينيه لحظة خاطفة وارتعشت شفتاه وتقلص وجهه لموجات الألم الذي اجتاحته وأدخلناه الدار ونحن ننوء بحملنا الثقيل بعد أن كدنا نسقطه أكثر من مرة بأيدينا المرتجفة وخطانا المتعثرة كانت جباهنا ترشح عرقاً وقلوبنا تنخلع من مهابة الموقف وبعد أن وضعناه أرضاً صرتُ أنظر إليه وأنفاسي تتسارع بلهاث مضطرب بينما أسرعت أمي إلى الموقد لتبعث الحياة في جمراته المحتضرة ووضعتْ عليه قدراً فيه ماء وهي توعز لي الأوامر واحداً تلو الأخر وأنا متسّمرة في مكاني مشدودة الأنظار للجسد الدامي، يمنعني ذهولي من استعاب أوامرها فضلاً عن تنفيذها حتى صرخت فيّ :

ـ قومي واستخرجي أحد ثياب أبيك.

عجباً لها ! حتى الأمس كانت تحتفظ بثياب أبي بصندوقها الخشبي كشيء مقدس سنوات مرت ولم تفرط بها، لا تخرجها من مكمنها إلا لتنشرها تحت أشعة الشمس لتطرد عنها ما يهدد قدسيتها من عثٍ ورطوبة، وهاهي الآن تؤثر بها هذا الجسد المضرج بالدماء.

أخرجتُ الثوب فتناولته أمي وبكل جرأة وجَلَد مزّقت ثياب الجريح الملطخة بالدم وأخذت تنظف الأعضاء المبضّعة والجراح الغائرة، ورغم جلدها فقد شحب لونها وتقلصت أساريرها فكل هذه الجراح التي تؤذن باقتراب النهاية من شأنها أن تفت في أشد العزائم بأساً وقوة.

وشهقتُ لِما رأيت وغصّتْ حنجرتي ببكاء مكتوم، وعندما لاحظتْ أُمي انفعالي المريع أخرجتني من الدار طالبة مني إحضار المزيد من الحطب، وفي الخارج أطلقت العنان لعبراتي المخنوقة وبكيت ما شاء لي البكاء وعندما عدت كانت أُمي قد ألبست الجريح الثوب وحاولت أن تضمد أكثر الجراح نزفاً وجلستْ خائرة القوى تتأمل الوجه الغائب في إغفاءة تتأرجح بين الموت والحياة وبين جفونها دمعة معلّقة لم يأذن لها المصاب بالانحدار بعد، وعندما دخلتُ تمتمتْ وهي لا تزال ترمقه بنظراتها الدامعة :

ـ علينا أن نبقيه دافئاً وأن نحاول إطعامه.

وعملت من التمر محلولاً وصارت تسقيه منه بين فترة وأخرى فمرة يبتلعه ببطء وأخرى يُراق على جوانب فمه.

لم أنم تلك الليلة فما أكاد أغفو حتى تجتاحني هواجس الخوف والقلق والترقب أما أمي فلم يغمض لها خفن، سهرتْ ليلتها مسهدة تحرس جريحها خوفاً من أن يختطفه شبح الموت غفلة، وفي الصباح الباكر هرعتْ إلى المركز الصحي تلتمس يد العون بخيفة

وحـذر غـير عابئـة بمـا يكتنفـه إيواؤهـا لهـذا الجـريح مـن خطـر ومجازفة، ولكنها عادت تجر أذيالها حسرة وخيبة، فليس هناك سوى الكلاب المسعورة التي اتخذت من المركز المهجور مأوى وملاذاً، فعمدتْ إلى أعشابها وعطورها تغلي بعضاً وتسحق بعضاً، سقته من أكاسيرها السحرية ونثرت على جراحه مساحيقها الشافية ,اعتصرت خبرة السنوات الطوال وما تعلمته من فن ومهارة لتستخلص منه دواءاً ناجعاً، صارعت معه الموت وقاومت المنيّة التي أنشبت أظفارها فيه بكل عتو ووحشية، وكلما حاول فتح عينيه أو تمتم بكلمات أسرعت إليه لتنتشل الحروف المقطعة من فوق شفاهه الذابلة فلعلها تحقق له مطلباً أو تكشف له هوية..

مرّ ت علينا ليلة ويوم وهذه هي الليلة الثانية وأجنحة الموت تخفق في جنبات دارنا وظلاله القاتمة تقترب بخطى واسعة نحو فارسنا الممدد وقد ربطت الأقدار بين قلوبنا بوشائج لو قطعتها يد المنون لتوقفت جميعها عن الخفقان.

في منتصف الليلة الثانية اكتسبتْ وجنتا الجريح لوناً باهتاً واستعاد بعضاً من قواه، فتح عينيه وحاول التكلم، فاستبشرتْ أمي وأسرعتْ بكل لهفة تستطلع حاجته قال بصوت حاول جاهداً أن يغالب ضعفه :

ـ أريد قلماً وورقة.. هل تستطيع إحداكنّ الكتابة ؟.

قد تمر على الإنسان لحظات تُكسب الشيء التافه قيمة كبرى وتجعل الأشياء الحقيرة مطلباً عزيزاً وقد كانت لحظتنا من تلك اللحظات ومطلبه من تلك المطالب، فقد كانت أمي مستعدة لتدفع عضواً من أعضائها ثمناً لورقة وقلم، فأسرعت تقلِّب أشياءها رأساً على عقب، عبثت بكل ما كان في السابق منظماً ومرتباً حتى أخرجت له ورقة صفراء وقلماً خشبياً عمدت إلى بريه بالسكين ثم دفعتهما إليّ.

ارتجفت يدي وأسقطتْ قبضتي الواهنة المتراخية القلم من بين أناملها، فكيف أستطيع الكتابة وأنا لم أمسك قلماً لسنوات طوال، كيف أخط سطراً واحداً وبيني وبين الحروف فرقة وبيني وبين الكلمات جفاء التقطتْ أمي القلم وأعادته إلى يدي وقالت بصوت اختلط به الأمر والرجاء :

ـ اكتبي، تستطيعين ذلك، فقد تكون هذه وصيته الخيرة.

وضعتُ الورقة على الأرض وانحنيتُ عليها وقد حجبتْ بيني وبينها غمامة سوداء وأصختُ سمعي لكلماته الواهنة فأخذ يملي عليّ :

ـ زوجتي العزيزة إذا ما وقعت عيناك على هذه الكلمات, فاعلمي إن ستار الفراق قد ضُرب بيننا حيث لا تلاقي إلا في دار البقاء، لقد اغتالوا أحلامنا وسرقوا أمانينا وألبسونا ثوب الذل والهوان، استعبدونا فكنّا في بيوتنا وبين أهلنا رجالاً وفي خارجها أشباه رجال نخاف صولتهم، ونرهب

بطشهم, لا عيش للضحية مع جلادها، هكذا كنتِ تقولين، ولابد للحرية من ثمن ولو كان باهظاً لقد كنتُ ورفاقي خطوة في طريق الجهاد، وسيأتي بعدنا من يكمل المسير، فلا تيأسي لتطاول الزمن وبعد الهدف، ووحشية الخصم ,وعندما يؤذن فجر الانتصار فاسعدي لأن دمي كان قطرة....

وانقطع الصوت فرفعت رأسي أستحثه فوجدتُ عينيه شاخصتين إلى المجهول وعلى الشفتين المنفرجتين ظلال ابتسامة..

وخلف صورةٍ معلّقةٍ على سلك ناتئ من بين قصب الحائط، تمثل ضريح الرسول (ص) مكتوب تحتها بخطٍ أخضرٍ جميل :

(السلام على صاحب السكينة) أخفت أمي الرسالة، رسالة تجهل هوية مرسلها، ومن أُرسلت إليه.

وكلما نظرنا إلى شجرة التين الوارفة الظل نذكر ـ إذا كنا قد نسينا لحظة ـ جسداً واريناه فجر أحد الأيام تحت جذعها العتيق لفارس مجهول دخل حياتنا في غفلة من الزمن ليكسبها قيمة ومعنى..

العرّاف

سحب من سيجارته أنفاساً متلاحقة، تكاثف الدخان الخانق في جو الغرفة ذات الضوء الخافت..

بقي صامتاً طويلاً، ليضفي على المكان طقساً كهنوتياً..

قبل أن تنطلق أولى كلماته أطلق تنهيدة عميقة، سيكون للكلام بعدها بلا شك وقع مؤثر..

ـ متعبة أنت يا سيدتي لدرجة خرافية، يقف الضباب بينك وبين ما تسعين إليه فيخطف الرؤية من عينيك، يبدو الطريق أمامك شائكاً وطويلاً، مليء بعثرات لا يمكن إقالتها..

قد يعترضك نهر فيقهر مسيرتك ويكتسح خطاك، لكنك ستصلين عليك أن تثقي بي..

- ......

ـ هل سمعتِ ما أقول جيداً؟ إنك تجلسين بعيداً، عليك الاقتراب قليلاً!!.

- ....

ـ لو وثقتِ بي فسوف تذهلكِ قدرتي على حلّ الأمور.

ـ !!!.

ـ إنك تشكّين بذلك يا سيدتي، نعم أرى الارتياب مفضوحاً في نظراتكِ الآسرة، ، وهذا الاتّساع الرائع بالدهشة في عينيك الجميلتين، الارتياب أحد عوائقك اللعينة..

- ......

ـ سوف أقول لكِ شيئاً، عليّ أولاً إنهاء حياة هذه المحتضرة بين أصابعي..

- ......

ـ اسمعي ما أقوله يا سيدتي، انظري أولاً إلى يدي هذه، اقتربي قليلاً لتريها جيداً فالنور خافت كما تلاحظين إنها شاحبة نحيلة، ومعروقة، وحتى أظفارها لدنة كشظايا مطاطية، ولكن لاحدّ لإمكاناتها، عليك أن تضعي كفك فيها لتدركي بنفسكِ مدى قوّتها وقدرتها العجيبتين كالسحر !!

- .....

ـ إنك تخشين الاقتراب مني، ويرعبكِ أولئك الذين سيُسيئون بك الظن، إن خوفك عائق مرير آخر..

- .....

ـ أعجب كيف تحسبين حساباً للجهلة والحمقى، إذا شئتِ سأضرب بينك وبينهم حجاباً فلا يعودون قادرين على رؤيتك أو أجعلك لا تعبئين بنظراتهم المرتابة وأقاويلهم السخيفة..

ـ !!!....

ـ عاودكِ الشك مرة أخرى، أراه الآن بابتسامتكِ الساخرة إنها رائعة بالرغم مما تنطوي عليه من سخرية..

اعتدل في جلسته، مسدّ شعره ولحيته، مسح جوانب فمه، تنحنح مراتٍ عدة قبل أن يقول :

كثيرة الشك والخوف، مترددة إلى حد يثير الشفقة لا تعجبي من معرفتي، فأنت أمامي شفافة كعطركِ الحريري الناعم، أستطيع أن أرى مكامن ذاتك من قوة وضعف، نعم أراها بوضوح كما يشفّ الزجاج عمّا تحته، لا تخفي رغبتكِ في الضحك..

- ....

أشعل سيجارة، فعادت دوائر الدخان الرمادية تطارد هواء الغرفة

ـ أترغبين في حل ؟ أتودين الخروج من هوة سحيقة تقبعين داخلها بصمت يائس ؟ ! إنّ ذلك أيسر عليّ من إشعال سيجارتي هذه !.

- ....

ـ عليكِ الاتّحاد بي، تمتزجين كما يمتزج دخان هذه السيجارة بالهواء، أن نتحوّل معاً إلى كيان لا يعرف انشطاراً أو ازدواجاً ستتحولين معي إلى امرأة خرافية تسخر من الشك والخوف والتردد، ستنطلقين نحو أهدافك سهماً مسدداً بلا انحراف، ستجتازين بخطىً ثابتة كل دوائر الوهم المغلّفة بالضباب الخانق، سـ..

ـ لماذا نهضتِ فزعة ؟! عودي يا سيدتي، هل تغادرين أتجعلين الخوف يمتطيكِ مرة أخرى ويعود بك إلى الوراء؟

حسناً قبل إن تغادري اسمعي ما أقوله :

ـ لقد أضعتِ من يدكِ فرصتكِ الماسية، ولن تجدي شخصاً سواي يمتلك هذه المقدرة السحرية، إنك تظنين نفسكِ ذكية، قادرة على الإفلات في الوقت المناسب، ولكن تأكدي إنّ هناك كثيرات سيسعدني إنقاذهن ولسن حمقاوات مثلكِ...

طيور ترهقها الهجـرة

لا يزعجـك الاسـتيقاظ مبكـراً ، بعـد أن تعـوّدتِ عليـه طـوال حياتك، ما يعذبك هو هذا الهم الذي يلازمك..

تكـرهين أجهـزة التكييـف إنهـا تـشعرك بـالبرد ، وتجعلـك تنكمشين في الفـراش وتـضطرك للاسـتيقاظ في الليـل اكثـر مـن مرة ، مجبرة أنت على التعامل معها ، فهناك من يشاركك الغرفة..

منـذ أن قـدمت إلى هنـا لم تهنئـي بنـوم، همّكِ يقهـر سـلطانه ، ويقظتك تتحداه، وسهادك يهزمه ، وفي الصباح عليك أن تنسي كل ذلك وتبدئي بعمل لا يعرف الرحمة..

بأي مشاعر ترمقين الطفلة النائمة أمامك ؟ وبأي عـين تلمحـين ابتـسامة وديعـة عـبرت علـى محيّاهـا الطفـو لـي الحـالم ؟ وبـأي يـدٍ مرتعـشة وجلـة توسّـدين خـصلات شـعرها المتنـاثر فـوق الوسـادة ، وتسوّين الغطاء جيداً فوقها ؟ هـل تـذكرين طفلتـك الـتي تماثلـها في السن، هل تتساءلين في قرارة نفسك إن كانت جدّتها المسنّة قـادرة على الاستيقاظ ليلاً من أجل تفقّدهـا ؟

تـذكـرين بـلا ريب طفلتـك الـصغيرة فعملـك المنهـك لا يـشغلك عنها ؟

صورة لا تبرح مخيلتك، تلك هي لحظة الوداع، كانـت تبكـي بصمت خشية بطش أبيها.

مسحتْ أنفها بطـرف كمّهـا ، وتلـك عـادة تـكـرهينهـا بشدّة، وكنـتِ تعنّفينهـا بـسببها ، لـكنـك هـذه المـرة سـامحتها ، فمـن حـق الأطفال أن يبكوا كثيراً في لحظة وداع أمهاتهم..

لحظـات غارقـة في الحـزن تتشبث بهـا ذاكـرتـك بعنـاد تتحـدى كل محاولاتك لتناسيها أو التغافل عنها..

مقهـورة أنـت علـى هـذا الفـراق، فهنـاك أهـداف تتطلـب منـك التضحية ـ وإن لم تكـن أهـدافك أنـت ـ زوجـك يريـد منـك الـسفر فالعائد الماديّ لعملك بعيداً هو الطريق الذي يوصله لأحلامه..

ولكن ماذا عن أحلامك أنت ؟

ذلـك الرجـل ـ زوجـك ـ لا يمـكنـك فهمـه أبـداً، يتظـاهـر بأنـه دائما على حق، وتتظـاهـرين بأنـك تـصدقينه وتـثقين بـه، ولـكـن في أعماقك تشعرين أنك لستِ كذلك..

هـل خطـر لـك يومـاً أن تـسألي نفسك أن كـان يحبـك ؟ ربمـا تجدينـه سـؤالاً مترفـاً لا ينـاسـب أمثـالـك.، يـكفـي أنـه زوجـك، لقـد أنجبت منه ثلاث فتيات، وهذا مـا جعلـه حانقـاً، فأنـت لم تـتمكـني من أن تهبيه صبياً، وقد طال انتظاره..

ثلاث إناث متتاليات خطأ فادح كان عليك تفاديه لتتجنبي سخطه وقسوته..

لا لستِ مقتنعة بهذا السبب فمنذ ليلتك الأولى معه خلّف في أعماقك جرحاً غائراً من العبث محاولتك نسيانه، حسك الأنثوي جعلك تدركين أن السعادة حلم يستحيل أن يطوف بعالمك يوماً.

هل تكرهينه ؟ لا.. لا تجرئين على ذلك، إنها خطيئة كبرى أن تكره المرأة رجلها.. هكذا لقّنوك عندما كنت صغيرة..

قبل سفرك كان عليك القيام بالكثير من الترتيبات، ، كان بعضها ساذجاً لدرجة مضحكة، فما معنى أن تُعدّي الكثير من الطعام وأنت تعلمين أن غيابك سيستغرق ثلاث سنوات ؟

كنت تفكرين كثيراً بصغيراتك المسكينات، فأبوهن تشغله أمور كثيرة عداهنّ، والجدة مسنّة وضعيفة النظر، لكن وجودها بينهن سيشعرهن بالطمأنينة، ستكون متساهلة كثيراً وستسمح بالكثير من العبث والفوضى وهذا أمر سيسعدهن..

في ليلة سفرك، خضّبت أكفهنّ الصغيرة بالحنّاء، وسرّحت شعورهن بزيت جوز الهند، كنت تبكين فلا أحد سواك سيقوم بتلك الأمور لاحقاً..

بدأت رحلة العمر الجديد، والعبور إلى أرض الغربة، عالم يكتنفه الغموض دفعوك لاقتحامه، تمزّقك الرهبة، وفراق فتياتك

يضرم النار حسرة بين ضلوعك، وهذا الوحش الحديدي الذي يقلّك في جوفه ويحلّق بك في آفاق السماء يكاد ينتزع روحك..

طوال الرحلة لم تتحركي بقيت متسمّرة على مقعدك، بالرغم من أن الجميع من حولك يمرحون ويتنقّلون بحرية، كم كان بودّكِ لو تلقين نظرة وداع على غابات وطنك المكتظّة وبساتينها الخضراء، كم كنت تتوقين إلى رؤية البحار الزرقاء العظيمة تحتضن بلدك الجميل، لكن الخوف زرع الشلل في أعضائك فأصبحت صخرةً هوت من شاهق واستقرت على الأرض..

هذه الصباح.. مثل كل الصباحات السالفة، فما الذي جعل الهمّ يتقاطر على فؤادك، هل عاودك الحلم ذاته، هل لمع الفأس مرة أخرى وهو يهوي بيد زوجك على شجرة ((المانجا)) التي تعشقينها في بستانك ؟

أنت ترينه نذير شؤم أن تُقطع الشجرة الباسقة المثمرة، أم أن ما يعتصر قلبك هو وجود جارتك ـ الأرملة اللعوب ـ وهي تبتسم شامتة ؟.

أنت لا تثقين بتلك المرأة، في نظرك هي سيئة بكل المعايير، وهي أرملة تملك أرضاً وتطلعات، أرضها المجاورة لأرضكم حلم ملّح يدغدغ أطماع زوجك، أم أن طمعه منصبّ عليها هي ؟؟

أصبحتِ الآن بعيدة تجهلين ما يدور هناك، فأي الهموم أشدّ قهراً تركك ثلاث فتيات برعاية امرأة مسنّة، أم زوج طمّاع وجارة لعوب ؟..

لا تشغلك أعمال لا تنتهي عن هذا السؤال، كل يوم تتكرر أشغالك الشاقة نفسها، تغسلين السيارات، تنظفين الفناء الواسع، تسقين الحديقة، تطعمين الطيور الملونة، تعدّين الطعام، تغسلين الملابس، تكوينها، تحملين حقائب الخارجين إلى أعمالهم ومدارسهم، تلوّحين مودّعة، تبتسمين في وجوههم حتى لا يزعجهم عبوسك، عمليّات لا تنتهي من المسح والدلك والشطف، قد تنسين نفسك أحياناً بدون طعام وهذا سر نحافتك المفرطة وشحوبك المخيف ولكن لا بأس فهذا لا يثير انتباه أحد، إن ما يلفت أنظارهم قليلاً من الغبار قد أغفلت تنفيضه عن الأثاث، أو كمية غير مناسبة من الملح في الطعام، فتلك ذنوب لا تغتفر عليك الحذر من ارتكابها..

ثلاثة أعوام من الغربة والقهر هو ما ستدفعينه ثمناً لحلم زوجك، فهل ستصمدين المدة تلك ؟ سؤال يبدو أنه لا يشغل بال أحد، لذا قد يبقى بلا إجابة..

المهم أن لا يعاودك الكابوس الرهيب مرة أخرى، أن لا ترين الفأس يهوي بلا رحمة ليطيح بشجرتك العزيزة، أن يغادرك الهاجس المقيت في وصول رسالة كُتِبت بخط غريب، رسالة مبللة

بدموع فتياتك الصغيرات، وملطّخة ببقع سوداء من كفّي والدتك العجوز، تخبرك أن زوجك قد ضمّ أرض الجارة إلى أرضكم.. ليس لأنه اشتراها ـ بأموالك ـ بل لأنه تزوج من تلك الجارة.....

الحياة مخاض نبيل

حاولت الهروب من الضجيج المتعالي في الغرفة الضيقة بتأمل صورة الطفل المعلّقة أمامها ، نظرته الوديعة المطلة من وراء النظارة التي تغطي اغلب وجهه كانت تناديها وتحدثها ، ابتسمت لمنظر السمّاعة الطبية المتدلية على صدره العاري وشعرت بالانتعاش لقطرة اللعاب التي سالت من زاوية فمه الأحمر الصغير فالتمعت كقطرة ندى على خدود الورد في صباح ربيعي واعد..

غمرها إحساس بالامتنان لتلك الصور التي تعلق في عيادات الأطباء لتشيع البهجة في قلوب المراجعين ولتنشر الابتسامة ولو قسراً على الوجوه المتعبة..

اقتربت بأحاسيسها ـ المولعة بالطفولة ـ من الصورة ، ذابت فيها فشعرت كأنها أمسكت بالطفل بين يديها ، تحسست جسده البض وبشرته المخملية ، استنشقت رائحته الطفولية فارتعشت روحها المولهة..

بـشغف تحسـست بطنهـا المنـتفخ، ابتـسمت دون أن تفكـر كيـف سـيبدو شـكلها لمـن يتطلـع إليهـا وهـي تبتـسم للاشـيء، تساءلت في قرارة نفسها سؤالا تردده آلاف المرات :

كيف سيكون شكلك يا حبيبي ؟

من أي مباهج الطبيعة ستكون صفات حسنك؟ بل كيف سأجتاز لحظات شوقي وأتخطى ساعات انتظاري حتى أراك بين يدي، ظمئي إليك يشتدّ حتى أشعر باحتراقاته في خلايا جسدي كلها، جسدي الذي أنهكه فرح انتظارك..

لازال الضجيج مرتفعاً يخرجها من تأملاتها العذبة، والسيدات حولها يتحدثن بلا انقطاع عن مشاكل العيش وإزعاج الأطفال ومرارة عيش الأزواج.. حتى راحت إحداهن تحدث الأخريات عن امرأة قتلت أطفالها الثلاث في إحدى أزماتها النفسية. كانت تتحدث بحماس لتنتزع صرخات الاندهاش وآهات الألم من مستمعاتها، المحتوى البغيض والمعتم للقصة أشعرها بالانقباض أشفقت على جنينها من هذا اللغط القاسي فخرجت إلى الممر تراوح في سيرها متشاغلة عن الهمهمات المنبعثة من الغرفة تردد في ذاكرتها بتلذذ مقطع شعري تحبه :

((ها أنا ذي أحس أي ضرب من عطر الأزهار لا أدريه يضوع مع أنسامي وما ذاك إلاّ من هذا الكائن الذي يكمن في حشاي، كما يكمن الندى فوق العشب))

شعرت بالكلمات تتغلغل على أعماقها بنعومة لتستفيق آلاف المشاعر الحلوة ويشعّ منها لون آخر من البهجة، فرح غامض صار يشدّها للحياة، كأن تلك اليد الصغيرة الهشة تغرزها في الأرض وتمنحها جذوراً بعد أن كانت طافية على وجه الحياة كنبتة مسافرة مع الموج إلى حيث لا وطن ولا سكينة..

عندما عادت على غرفة الانتظار كانت الوجوه قد تبدلت، جلست إلى جانب سيدة شبه مستلقية على الكنبة عندما شعرت بها تلك السيدة فتحت عينيها المغمضتين وابتسمت ابتسامة صفراء ذابلة كوجه الخريف ثم أغمضت عينيها من جديد..

بعد لحظات استفاقت والتفتت لتسألها بدون مقدمات :

ـ أي حمل هذا لك ؟

ارتبكت لفجاءة السؤال وغرابته ومع إن الإجابة بسيطة جداً لكنها ابتسمت دون أن تجيب.. اعتدلت السيدة قليلاً، سحبت قدميها بكلال وبطء وكأنها تسحب مرساة متشبثة بالقاع، قالت بكآبة وفتور :

ـ هذا حملي الرابع، لدي بنت وصبيان ثم أردفت :

ـ أشعر أنني سأموت في حملي هذا !

صعقت لهذه الإشارة القاتمة.. أذهلها تفكير امرأة بالموت وهي تحمل الحياة بين أحشاءها ؟ كيف تتملكها مشاعر سلبية وهي

على أبواب عطاء جديد ؟ طالما شعرت إن المرأة تتجدد مع كل حمل وتكتسب كينونة أخرى..

ـ نعم سأموت قالتها المرآة بيأس، فأنا لم أشعر سابقاً بما أشعر به الآن..

احتارت كيف تجيبها وبدا لها إن حديث هذه المرأة المشرفة على الموت لا يقل سوءاً عن قصة تلك المرأة وجريمتها البشعة والتي هربت قبل قليل من سماعها ، أرادت أن تواسي محدّثتها :

ـ أنت متعبة فقط، وستنسين آلامك كلها عندما يحين القطاف ويمتلئ حضنك بالثمر الموعود..

ابتسمت ابتسامة فارغة باهتة ، مسحة من المرارة طافت على محيّاها ، يبدو أنها كانت تعيش وجعاً في الروح وتحمل قلقاً يضنيها كانت تريد أن تتحدث عنه ولو إلى شخص لا تعرفه..

ـ حملي ليس هو السبب فطفلي مسكين مثلي، إن ما يوجعني هو موقف عائلتي المعادي لي.. ابنتي الكبرى ذات العشرين ربيعاً صارت تكرهني، كنت أعتقد أننا صديقتان، منذ علمت بحملي أصبحت تحتقرني..

ـ هل تعترض ابنتك على حملك ؟

سألتها باندهاش ّ.

عادت ظلال الحزن تطل من خلال عينيها ، شعور بالخذلان كان يعشش في أعماقها يعتصر روحها ليقذف بعصارته على أساريرها قالت ساخرة :

ـ الاعـتراض كلمـة لطيفـة مؤدبـة مقارنـة بموقـف ابـنتي إنهـا لم تكلمني منذ أشهر تشعر بالعار من حملي على نحو جعلني اشعر بدوري بهذا الشعور، ولداي لم يتحدّثا بالموضوع ولكنني أدرك انهما مستاءان أو على الأقل محرجان

ـ وزوجك؟

أضـاءت ابتـسامة فـاترة وجهـاً أنهكـه العبـوس والألم ولكنهـا اختفت بأسرع مما ظهرت فيه ::

ـ في البداية كان سعيداً، شعرنا معاً كأنّ ربيعاً دافئاً زارنا ليهبنا هدية تذكرنا بألقه وروعته لكنه انطوى على صمته عندما واجهنا أولادنا بموقفهم المعارض..

ـ كيف يعترضون على قرار يخصكما ؟

ـ يعتقدون أنهم فوجئوا بأمر سيقلب كيان الأسرة واستقرارها، كان علينا أن نستشيرهم ولا ننفرد بالقرار وحدنا، يعتبرونه تهوراً منا أن ننجب في هذا العمر، نزوة لا تليق بنا، فأنا في الثانية والأربعين وابنتي طالبة جامعية..

ـ ......

ـ موقف أولادي صفعة آلمتني، جعلتني أسال نفسي بأي عين ينظرون إلي ؟ هل نسوا أنى امرأة لازالت تملك فيضاً من الأحاسيس، هل أدهشهم أني أعيش حياتي الخاصة ؟.

ـ ......

ـ لابد أنهم يعتبرونني عجوزاً لا دور لها في الحياة سوى خدمتهم أنا في نظرهم شجرة لا تثمر يستبقونها لأنها تمنحهم ظلاً يلوذون به، كنت اعتقد انهم يحبونني حقاً لكنني اكتشفت خطأي وهذا ما يوجعني إنهم أنانيون سرقوا فرحتي وتركوني فريسة الألم..

هزّها الحديث من الأعماق، شعرت بهوّة سحيقة بين المشاعر المهيضة لتلك السيدة وبين مشاعرها الفتية الزاخرة بالفرح، إنها تماثلها في السن فكم من الناس يعتبرون الحمل في هذه السن تهوراً وطيشاً ؟.

لاشيء في نظرها يماثل الأمومة، تراه تكاملاً وضرباً من العروج والتسامي، ليس سوى الأطفال يمنح الحياة معنىً، لذا كانت تشعر بالعجز والقهر لتأخر زواجها وإن أحاسيسها بدأت تصاب بالخدر والشلل، ليس لان القطار سيفوتها ـ كما يقال ـ بل لأنها كانت تبتعد عن أملها المتأجج، خشيت على عنفوان الأمنية في أعماقها أن يخبو..

وعندما تزوجت رفضت السماح لمسالة العمر أن تهزمها، زارت الطبيبة للمرة الأولى وشدت على يديها كأنها تستجديها، التمست منها أن تعطيها أملاً بقدرتها على إنجاب طفلاً معافىً، نظرت إليها وقد تدفقت مشاعرها :

ـ إن روحي تتطلع إليه وتهفو بشدة، طفل ينتمي إليّ، ينمو داخلي يشاركني أنفاسي ونبضي، وكلما خفق قلبي أدرك أن جزءا أثيرا

من دمي يتدفق إليه ليغذوه..إني على استعداد لخوض المستحيل لأن طفلي سيمنحني القوة، سيمسك بيدي لنجتاز التجربة سوياً، هو لن يخذلني أنا واثقة من ذلك، وعندما ألده سأولد معه من جديد وسنكبر سوياً..

نظرت إلى محدثتها فوجدتها قد عادت إلى إغفاءتها المكللة بظلال قاتمة ، شعرت نحوها بالأسى وتساءلت :

- كم من اليسير أن تذبح المرأة عندنا ويراق دمها حتى من اقرب الناس إليها ولكن لماذا تستسلم لذابحها وتستكين لنهايتها الدامية ؟

عندما وصل دورها للدخول إلى الطبيبة نهضت بثقة وتفاؤل، خلّفت وراءها مشاعر الأسى والإشفاق لأنها عاهدت نفسها إن لا تترك الظلام يتسلل إلى أعماقها فتلك الأعماق مسكونة بالنور والحياة...

امرأة الحب والمطر

تتعقّد المسالك أمام عينيها فتبدو كومة من الخيوط المتشابكة لا تفضي إلى شيء، لا يمكنها المضيّ في طريقها إلى الأمام أو التراجع إلى نقطة البداية لتستأنف الانطلاق من جديد..

تتآكل أعماقها بالغضب الذي يسكنها، تجد نفسها مرتبكة حتى في أمنياتها!!

تتمنى أحياناً لو يتضاءل حجمها حتى تختفي عن الأنظار في علبة صغيرة مغلقة تعزلها عن العالم الصاخب حولها، ذلك العالم الذي لم تعد تنتمي إليه..

لم تكن تملك فكرة واضحة عن العدم لكنها تتمنى لو تصبح شيئاً معدوماً، قد يكون ذلك مريحاً لأعصابها المرهقة، ثم تستفزها تفاهة تلك الأفكار فكيف يمكن لإنسان أن يكون شيئاً وعدماً في الوقت ذاته ؟.

فتعود مرة أخرى لغضبها، وتزداد المسالك تشابكاً..

البكاء خيار آخر، لكنها سئمت حالة الانصهار التي تحيلها تدفقاً من الماء المالح ولأنها تعجز عن التعبير عن حزنها وشعورها بالخذلان تستسلم لغضبها الذي يفتّتها شيئاً فشيئاً..

لماذا لازالت تفكر به وتشتاق إليه ؟ لماذا تفشل كل مرة حاول فيها محوه من ذاكرتها ؟!

إنها تقسر نفسها ـ وبطريقة سادية ـ للعودة بمشاعرها إلى ما كانت عليه قبل الالتقاء به، تلك المشاعر الغافية بضبابية حالمة، إنها أفضل آلاف المرات من المرور بتجربة تنتهي إلى الفشل..

ما هو الفشل ؟ هل هو التنكر والخذلان ممن منحناهم أجمل مشاعرنا، أم هو عدم الإحساس بتلك العواطف من الأصل ؟.

جرّبت كثيراً إقناع نفسها بفكرة حاولت استثمارها من أجل ذاتها المهيضة :

ـ من الأغنى لمشاعرنا وتجربتنا الإنسانية أن نعيش حباً فاشلاً من أن تتحجر تلك المشاعر وتجف مثل أملاح الكهوف التي تفقد نداوتها مع الأيام لتتحول إلى أحجار صلبة..

تحاول الإيحاء لنفسها ـ بعمق ـ بتلك الفكرة، أن تمتصها كقطعة من ورق النشّاف، لكنها تعود لتلفضها مرة أخرى غضباً مُدافاً بالألم الصامت..

لقد ذهب عنها، ذلك الذي عاشته حباً يتصاعد عنفاً كقلب الأعاصير، لكنه رحل الآن فلماذا تصر على استبقائه ؟ لماذا تنام

وتصحو وهي تحمله معها كما تحمل ذاتها؟ جرأته على البقاء متشبثاً في أعماقها هوما يملؤها بالغضب الطاحن..

حاولت السفر في تلك الأعماق، لا لتبحث عنه بل لتفتّش عن نفسها، لماذا عاشت طوال عمرها مكدودة الروح بأشواق تحيّرها، منهوكة بانتظار غامض، مشدودة الأعصاب بترقب مضنٍ لقادم مجهول تمتطي معه صهوة الأيام في سفر لا يعرف النهايات ؟. وما أن التقت به حتى عدّلت حساباتها وغيّرت معادلاتها كلها لتنطبق عليه، لم تفتح عينيها جيداً لتستقر الرؤية وتتضح معالم الصورة، بل سارت يشدّها حنينها المزمن متجاهلة مزالق الطريق..

حالة الحب الهلامية التي كانت تحياها جسّدتها فيه، حوّلته إلى أيقونة وجلست تتبتّل في محرابها، زخم عواطفها المتدفق توقف عند سدوده ولأنها امرأة معجونة بالأشواق كان لابد لها من الحب لذا أحبته لا لشيء فيه بل لأنه هو دون سواه أعترض سبيل أشواقها..

في تلك الليلة لازمها أرقها الضاري، وذلك الشيء القابع في داخلها يوجعها كالوخز، الجو الماطر في الخارج يتحدى سكينة الليل، ووشوشة المطر المنهمر بغزارة لا تسكتها إلاّ صرخات الرعد الصاخبة بين فترة وأخرى..

التمعت ومضة برق خلال شباك الغرفة وتسللت بنورها الخاطف من خلال الستائر المسدلة، عندها نهضت من فراشها

يحثّها شعور بأن كل ما هنالك في الخارج يدعوها للمثول بين يديه، البقاء في الفراش متدثرة بأغطيته كان كالبقاء في أكفان خانقة، لقد آن أوان النشور من حالة الموت المعلّقة التي كانت تعيشها، شعرت إنها ستلتقي بالحقيقة التي ستفكّ لها تشابك الخيوط الذي كان يشعرها بالعجز القاتل..

هل من الجنون أن تقف تحت السماء في تلك الليلة الماطرة ؟.

إنها رغبة في الاغتسال تعتريها، لم تجد في حياتها مثل ذلك الصدق المتجلّي في مياه بكر تسكبها السماء بسخاء على الأرض المسكونة بالآثام..

شعرت بقوة عظيمة تكتنفها من الجهات كلها، ترسل لها مع السحاب المتدفق فوقها أكاسير خرافية لم تكن تصدق بوجودها..

شعرت بتوهج عواطفها رغم المطر البارد الذي أخذ يلسع جلدها، مشاعرها المتأججة التي كانت توجعها دوماً انتفضت الآن متوجهة بانشداد ساحق إلى تلك القوة العظيمة التي جللتها في تلك اللحظة وهي تغتسل تحت المطر..

أحب.. نعم، فأنا امرأة الحب والأشواق ولا يمكنني العيش بسلام إلا بهما، لم أكن فاشلة لأني أحببت بل لأني أسأت في اختيار من احب، أما ألان فأنا أعرف،أنا أعرف..

صارت تهمس لنفسها بتلك الحقيقة، ثم هتفت بها فاخترقت صمت الليل وظلمته كما يفعل الرعد والبرق..

لا تدري كم من الوقت مرّ عليها وهي تغتسل تحت المطر لكنها عندما عادت إلى الداخل كانت امرأة أخرى تسكنها الحقيقة الحلوة...

وطن الحزن والظلام

قبل موعد الإفطار بساعة ، في إحدى ليالي رمضان، وقفت أحلام في مطبخها المتواضع لتكمل إعداد الطعام، إذ سمعت طرقاً خفيفاً على الباب لا يكاد يُسمع، خفق قلبها بشدة فهي تعرف هذه الطرقة وتعرف صاحبها، فالحاج ((عمران)) لسبب ما لا يحب استعمال الجرس الكهربائي، لذا اعتاد أن يعلن عن قدومه بطرق الباب بأطراف أصابعه..

هذه الليلة هي وجلة لأن الحاج عمران سيناقش أمراً مهماً.. دلف الرجل مع زوجها إلى غرفة الضيوف، بينما توقفت هي عن عملها فليس من المجدي محاولتها إكماله، أعصابها مضطربة ويداها لم تعد تطيعانها، خرجت من المطبخ عندما سمعت بكاء طفلها ((أيمن)) البالغ من العمر ثلاثة أشهر، أسرعت إليه واحتضنته بكل حنانها وقلقها وبدأت بإرضاعه..

سرحت أفكارها عائدة بها على ما قبل عقد من الزمن، في ليلة جلست كعادتها مع والدتها بعد صلاة المغرب تقرأ ما تيسّر من

كتاب الله، حين لاحظت أن والدتها تعاود النظر إليها بين الحين والآخر، شعرت أنها تريد محادثتها في أمر، فلم ترغب في إطالة انتظار أمها، أنهت قراءتها وجلست.

قالت أمها بدون مقدمات :

ـ أتعلمين يا أحلام أن ((محمدا)) قد خطبك من أخيك ؟ !

خفق قلبها لوقع المفاجأة، رفعت عينيها إلى أمها، ثم غضّت طرفها حياءً، ابتسمت الأم قائلة :

ـ لقد حدّثني ((علي)) البارحة فما رأيك ؟

لم تجب وازداد خفقان قلبها فهي تعرف محمداً لأنه صديق أخيها الحميم، تربيا ودرسا معاً ولم تنقطع علاقتهما حتى بعد تخرجهما وعمل كل منهما بمجال مختلف، ، يجمعهما همّ واحد، وتقودهما للمستقبل غاية واحدة، وبالرغم تردده الدائم على منزلهم فهي لم تره سوى مرة واحدة، أعادها صوت والدتها من أفكارها :

ـ ما رأيك يا أحلام ؟

ـ ما رأي علي ؟

ـ أنت تعرفين رأي علي بصديقه العزيز، ولكنه لا يريد أن يفرضه عليك، ولك أن تجيبي بكل حرية وقناعة.

ـ وأنت يا أمي ما قولك ؟

ـ إنّ مكانة محمد وعلي عندي سواء، لقد ترعرع أمام ناظري، لا أحد يفوقه ممن نعرفهم في ـ أخلاقه وإيمانه وتقواه، بل هو في نظري أكثر هدوءاً ورزانة من علي، ولكن الأمر إليك أولا وأخيراً.

شعرت أحلام أن الأمر يبدو كأنه بديهيّ ولا يحتاج إلى عناء التفكير، فإن غاية ما تتمناه أي فتاة وتحلم به شاب بصفات محمد ودماثة خلقه، ويكفي أنه الصديق المقرّب لأخيها الحبيب، لذا سارعت بإعلان موافقتها.

سيطر عليها بعد ذلك هاجس ما، هل اختارها محمد لأنها أختا لصديقه العزيز؟ فتكو ن خطبته لها نوعا من المجاملة والتودد خصوصاً وأنه لم يرها سوى تلك المرة!

استحوذت عليها تلك الفكرة بما يشبه الوسوسة، ألحّت عليها وسرقت الرقاد منها تلك الليلة وعندما أصبحت سألت أخاها عن هواجسها برقة وحياء، تبسّم علي ضاحكاً، قال وقد برقت عيناه لسؤال أخته البريء واشرق محيّاه الوسيم:

ـ يا عزيزتي إن محمداً أعمق غوراً من أن يختار شريكة حياته على أساس المجاملة والمحاباة، إنه يعلم جيداً أي فتاة أنت وكل المؤهلات التي تتمتعين بها من دين وخلق وحنان ولطف،وأضاف ضاحكاً:

ـ هذا بالإضافة إلى ما تتحفينا به دائماً من أطباق شهية.

أطرقت ضاحكة وقد أحسّت بسذاجة هواجسها ، وبدون كثير من النقاش وبحث في التفاصيل اتفقت العائلتان وتم عقد القران لتدخل أحلام مرحلة جديدة من حياتها الوادعة ،

ودارت رحى الأحداث بسرعة !!

قبل إتمام الزواج القي القبض على أخيها وزوجها وعدد من الشباب أثناء إعدادهم لإحدى العمليات الجهادية ! وانقطعت أخبارهم تماماً ، بعد جهود مضنية من السؤال والتحري علمت الأسرتان أن محمداً قد حُكم عليه بالسجن عشر سنوات، أما علي فلم يُعلم عنه شيئاً ، و بمحاولة تشبه المعجزة استطاعت أسرة محمد ـ وبعد عامين من اعتقاله ـ أن تحصل على أذن بزيارته. والتقت أحلام بفارسها وراء القضبان، لم تستطع منع دموعها التي عاجلتها بالانحدار، سألته عن حاله ولم يكن ثمّة داعٍ للسؤال فقد بدا عليه الهزال والشحوب، كانت عيناه غائرتين وتنطق قسماته بالمعاناة والإجهاد والألم، لكنه كان ثابت الجنان هادئاً رزيناً

ـ كعادته ـ قد زادت المحنة قسماته عمقاً وتعبيراً ، سألته عن علي وعرفت أنه لا يعلم عنه شيئاً بعد أن فرّقوا ينهما بعد أيام من الاعتقال وقبل أن يتفرّقا تعاهدا على الصبر والصمود ولو أدّى ذلك إلى استشهادهما على أيدي الجلادين.

بعـد عـام مـن الحادثـة توفيـت والـدة أحـلام صـابرة محتـسبة مفجوعة بوحيدها بعد أن فوّضت أمرهـا إلى بارئهـا ، فـاقترح محمـد على زوجته أن تنتقل للعيش مع والديه العجوزين..

مـرّت الأعـوام وأحـلام تـتردد علـى زيـارة زوجها ، عرفتـه مـن خلالها معرفة حقّة ، وجدت فيه الزوج والحبيب والأخ المفقود

و الأب الراحـل، والرفيـق الـسائر علـى الـدرب نفـسه، علّمهـا الصبر والتطلع إلى الغد المشرق، أخرجها من دائرة الأمل الضيّق إلى أفق الأحلام الـكبرى التي تشمل البلاد والعباد ، عرفت أي مجموعة كـان ينـضمّ إليهـا علـي ورفاقـه وشـعرت بـالفخر، أدركـت أن هـمّ المبدأ والعقيدة تتصاغر أمامه همومها وأحزانها كلها..

وانتظرت !!.

بعد أعـوام ثمانيـة أُطلـق سـراح محمـد ، خرج مـن معتقلـه متوّجـاً بـالظفر، مـسلّحاً بعزيمـة تخرّلهـا الجبـال الرواسـي، مـصمماً علـى مواصلة المسير حتى إدراك إحدى الحسنيين.

سمعت أحلام زوجها يودّع ضيفه فأفاقت من تخيلاتها ، حاولت النهوض عندما ارتفع صوت المؤذن صادحاً :

ـ الله اكبر..

دخل زوجها وهو يردد كعادته عند سماع صوت المؤذن :

ـ (إن الله وملائكتـه يـصلّون علـى النبي،يـا أيهـا الـذين آمنـوا صـلّوا عليه وسلموا تسليما).

رمقها بنظرة فهمت مغزاها ، قالها بعينيه قبل لسانه :

ـ موعد سفرنا سيكون الليلة.

وبصمت انحدرت دموعها على وجنتيها.

ـ لا تبكي يا أحلام، فالخير فيما اختاره الله.

وهنا وصل المؤذن إلى قوله :

ـ حيّ على الصلاة.

فقال أبو أيمن :

ـ قومي لنصلي، وسنتحدث بالأمر لاحقاً.

بعد عام من إطلاق سراح محمد عادت الأنظار الحاقدة تحوم حوله شددوا عليه المراقبة ، استدعوه للتحقيق أكثر من مرة ، فقرر رفاقه إبعاده حفاظاً عليه ، اعترض بشدة فالوطن أعزّ من أن يترك فريسة بيد أعدائه يمزّقونه كيف شاءوا ، لكن الأمر لا يعود إليه وحده فكان عليه الرحيل ولو مجبراً فهاجر على مضض والزفرة تحرق فؤاده..

بعد منتصف تلك الليلة ، وبدون أدنى ترتيبات انطلقت بهم السيارة ، لم تحمل أحلام معها متاعاً سوى حاجيات الصغير وبعض مما لابد منه ، وعند الفجر وصلوا إلى محافظة أخرى ، قصدوا عنواناً حدده الحاج عمران ، لم تُغمض أحلام جفنيها رغم إجهادها وتعبها حتى ارتفعت شمس الضحى ، وهي تجهل تماماً أي مصير ينتظرها وعائلتها..

في منتصف الليلة انطلقت بهم السيارة مرّة أخرى، كان برفقتهم هذه المرة رجل ملثم يبدو من هيئته وصوته أنه في الأربعينات من عمره، وصلوا معه إلى الحدود المائية وكان بانتظارهم زورق صغير، نزل منه رجل لا تبدو ملامحه من شدة الظلام، تحدث مع الرجل الذي كان معهم كلاماً مقتضباً، تصافحا، عاد الأول وركبا الزورق مع الثاني..

حيّاهم (رجل الظلام) واخذ يتحدّث إليهم عن طبيعة الرحلة وما عليهم القيام به ليصلوا إلى شاطئ الأمان، خاطب أحلام قائلاً :

ـ المهم أن لا تدعي طفلك يبكي، فالهدوء أمر مهم في رحلتنا وأي حركة أو صوت تعرضنا جميعاً لخطر كبير، وقد نضطر أحياناً لإلقاء الأطفال في الماء إذا تعذّر علينا إسكاتهم..

احتضنت صغيرها بشدة كأنها تريد حمايته من خطر وشيك الوقوع، تمنّت لو عاد جنيناً..

استمرّ الرجل في كلامه ملتفتاً هذه المرة إلى زوجها :

ـ إذا كنت مدخناً فعليك التوقف عن التدخين، فأي بصيص من الضوء في هذا الظلام سيكون مهلكاً، أتمنى أن تسير الأمور على ما يرام ولكن.. إذا ما حدث أي طارئ فعلينا الاختباء بين تجمعات القصب حتى زوال الخطر..

سار الزورق يشقُّ الظلام وصوت الماء يترقرق بهدوء كأنه يخشى أن يوقظ الوحوش المختبئة فتنقض على الزورق الصغير

وراكبيه، وغابات القصب تبدو وكأنها أشباح تزيد غسق الليل ووحشته.

اقتربت أحلام من زوجها هامسة في أذنه ولا يزال كلام الدليل عن إلقاء الأطفال في الماء يتردد في مسامعها :

ـ ما أقساه.

فرد عليها :

ـ بل قولي ما أجرأه، هذه الجرأة كانت سبباً في نجاة الكثيرين..

بدأ النعاس يداعب جفني أحلام، فهدوء الليل وجريان الماء الرتيب واهتزاز الزورق، وما عانته من تعب وسهر ساعدت على استرخائها ، وقبل أن تغفو دوّى صوت إطلاق نار رهيب مزّق الصمت، جفلت أحلام وانتفض زوجها قلقاً ورعباً ، أما قائد الزورق فقد عقّب على الصوت بلهجة المعتاد على الأمر المتوقع لاحتمال وقوعه :

ـ اشتغلت رحمة الله.

ثم أعقبه إطلاق آخر اشدّ من الأول.

ـ علينا أن نختبئ قال الرجل

شعرت أحلام أن جسدها كله غدا قلباً خافقاً ودعت الله أن يبقي أيمن نائماً. وبين غابات القصب اختبأ الزورق فريسة لاذت بالفرار من صيّاديها. طلع النهار عليهم وهم قابعون في مخبئهم يتحدثون همساً والعيون تنطق بالترقب والخوف وأحلام تحتضن

طفلها لا تدري أي خطر تدفع عنه، خطر البرد أو الخطر المترصّد بهم في مكان ما أو.. أو..

مرت ليلة أخرى أشدّ من سابقتها خطراً وقلقاً واضطراباً، لا قوت لهم سوى الصبر، وبضع تمرات عرضها الدليل عليهم لكن أحلام رغبت عنها فوضعتها جانباً.

عند الصباح سكن إطلاق النار وأشرقت الشمس أجمل ما يكون الشروق دافئاً حنوناً، وعلم الدليل بخبرة المتمرّس أن الطريق أصبح مأموناً فاستأنف الرحلة من جديد..

ساروا طوال اليوم، وبعد العصر وجدت أحلام أن الرجل بدأ يتحدث مع زوجها وكأن لسانه انطلق من عقاله، شعرت من طريقة كلامه وانفراج أساريره أن الخطر قد زال وأن رحلته ربما شارفت على نهايتها، فتنفّست الصعداء وحمدت الله..

قُبيل المغرب، وبينما كانت الشمس تودع النهار فتلقي بألوانها الأرجوانية الرائعة على صفحة الماء في موكب الغروب المهيب.

وصل الزورق إلى الشاطئ فنزل الرجل ثم ساعد زوجها على النزول وما أن خطت أقدامهما الأرض حتى عانقه بشدة كما يعانق المرء أعز مخلوق إليه وحمدا الله على انتهاء الرحلة بسلام.ثم ترجّلت أحلام.. عندها بكى أيمن بصوت خفيض فتناوله والده وقبّله مبتسماً..

امتدّ بصر أحلام على صفحة الماء، التفتت إلى بعيد حيث يلف الحزن والظلام وطناً تركته مرغمة وفي قلبها ألم، وفي ذاكرتها صور الأمس مع الأم والشقيق، وفي مخيلتها شبح أبوين عجوزين تنحدر المدامع من عيونهما الذابلتين في لحظة وداع.

ثم نظرت إلى الأرض الممتدة أمامها وتساءلت :

ترى كيف ستكون أيامها القادمة ؟..

المشهد الأخير

استوى ((العم حمزة)) جالساً كعادته أمام تلاميذه الصغار، بينما وضعني في مكاني المألوف إلى جانبه الأيمن، فمنذ أن فقد بصره وأنا رفيقته الدائمة أكاد لا أفارقه إلاّ عند نومه حيث أقف منتصبة عند طرف السرير أنتظر الصباح لأبدأ معه صحبة يوم جديد.

فأنا ا لتي أُذلل له عقبات الطريق، وأُميط الأذى عن دربه، أقوده عند المنعطفات وأطرق له الأبواب فتُفتح له بالترحاب، وعندما يغضب على أحد طلابه لعبثه أو تقصيره أكون الأداة التي يوقع بها العقاب الذي لا يكون غالباً عقاباً مؤلماً ولكنه يكفي لردعهم وإخافتهم..

بدأ ((العم حمزة)) تلاوته بينما كانت أسماع الصغار مُنشّدة بانتباه إلى ما يتلُو فقد كانت آيات رائعة تحدثت عن نبي اللّه موسى وعصاه وما لتلك العصا من قدرات عجيبة وإمكانات غريبة، فبعد أن كانت عصا عادية يتوكأ عليها ويهش بها على

غنمه، تحولت بقدرة اللّه وأمره ومشيئته ثعباناً عظيماً يلقف إفك القوم وسحرهم وأباطيلهم فيتحقق النصر المبين للنبي العظيم ويؤمن برسالته خلق كثير ويقع السحرة ساجدين معلنين إيمانهم وتوبتهم متبرئين من سالف ما قدمت أيديهم، ثم وبضربة من تلك العصا انشقت مياه اليم إلى فرقين كأنهما جبلان فتجتاز القوافل المؤمنة البحر هاربة من ملكها الجبار وبضربة أخرى يغشى الماء بأمواجه المتلاطمة تلك الحشود الكافرة.

استمر يقرأ بصوته العذب الرخيم وصبيته الصغار يُصيخون السمع فلا تُرى لهم حركة ولا يُسمع لهم صوت، وشعرتُ بالاعتزاز والفخر لأن واحدة من بنات جنسي كان لها هذا الدور الفعّال في رسالة نبي عظيم وغبطتها مع شعوري بوجودي المتواضع في حياة هذا الرجل الطيب وما أُقدمه له من خدمات صغيرة..

عند الظهيرة عدنا إلى البيت، وكان العم حمزة كعادته مليئاً بالبشر، مبتسماً ضاحك المحيّا، متخذاً مني وسيلة لمداعبة المارة من الأصدقاء حيث كان يلكزهم بطرفي بوداعة ومحبة. ولكن مزاجه المنفرج تغيّر وانقبض عندما أخبرته

((أم سالم)) ـ المرأة العجوز التي كان يسكن غرفة في منزلها المتواضع إن ابن أخيه ((طارق)) قد حضر لزيارته، فبالرغم من تسامح العم حمزة وطيبته وحبه لكل من يعرفهم إلاّ انه لا يكّن لقريبه الوحيد هذا غير مشاعر الكره والاحتقار ولم

يكـن يرحـب بزياراتـه النـادرة بـل كـان يـضيق بهـا ويتمنـى أن لا تتكرر وقد دأب على وصفه بأوصاف مقيتة، كالمنافق والفاسق وأداة الظالمين ويبدو إنه كان يعمل عملاً لا يرضي عمه، بل لا يرضي أحداً من الشرفاء.

قابـل العـم حمـزة ضيفه الثقيـل بـبرود وفتـور لا يخفـى علـى الثاني، الذي ادعّى انه إنما جاء لزيارة قريبه الوحيد صلة للرحم وأداء لواجب القرابة ومكث دقائق معدودات وانصرف فطلب العم حمـزة مـن أم سـالم بلهجـة غاضبة متوعـدة أن لا تدخلـه الـدار مـرة أخرى، ثم رفض تناول ما أعدته لـه مـن غـذاء واستلقى على فراشـه متململاً.. وبعـد أن حدّث نفسه كعادتـه قبل النـوم وتـلا بضع آيـات قرآنية استغرق في نوم عميق.

أرخى الليل سدوله على باحة الدار المكشوفة مطارداً بخطى حثيثة آخر خيط من خيوط النهار. وغمـر الظـلام الغرفة الصغيرة، دون أن يستيقظ الرجل العجوز مخالفاً عادته، فهولا يؤخر صلاته أبـداً ويبـدو إن الأمـر أثـار ريبـة أم سـالم وشـكوكها حيـث فتحـت الباب واقتربت بهيئتها المنحنية إلى السرير لتوقظ صاحبه وبعد أن نادته عدة مرات ولم يُحر جواباً عمدت إلى هـزّه بلطف أولا ثمً هـزّاً عنيفاً دون أن يُبـدي النـائم حراكـاً شـهقت شـهقة عاليـة وصـكّت وجهها وغادرت الغرفة على عجل.

امتلأت الغرفة برجال كثيرين ضاقت بهم مساحتها الضيقة ويبدو أن أم سالم ندبتهم لأمر مهول، فها هم يتفقدون الجسد المسّجى ويرددون ـ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ـ بينما كانت أم سالم تولول وتنتحب خارج الغرفة.

وأدركتُ إن الذي يدعوه بنو البشر ((الموت)) قد نزل بصاحبي الطيب وانه سيودع تحت واحدة من تلك القباب الحجرية الصغيرة في ذلك المكان الموحش الذي اعتاد على زيارته والجلوس بين قبابه يتلو الكثير من السور القرآنية فيبدد وحشة المكان ويملؤه أنساً وطالما ردد قول

((أنتم لنا فرط ونحن بكم لاحقون))

مضت أيام دون أن يُفتح باب الغرفة مرّة أُخرى، وعند ضحى أحد الأيام فُتح الباب فجأة واندفع شخصان كأنهما زوبعة يثيران الكثير من الجلبة، حيث كانا يضحكان بصورة هستيرية مبالغ بها، كان أحدهما ((طارق)) والآخر رفيقه ((مراد)) قال أحدهما :

ـ ما هذا الجو الخانق، افتح الشباك ليتجدد هواء الغرفة المتعفن.

فُتح الشباك فغمر ضوء الشمس الباهر أرجاء الغرفة المعتمة الحزينة التي لم تر النور منذ أن غادرها ساكنها إلى داره الأبدية،

بينما كان الرجلان يتفقدان محتوياتها الهزيلة المتواضعة كأنهما يبحثان عن شيء مفقود ، قال مراد :

ـ هل تظن أن عمك يملك شيئاً ذا قيمة.

فأجابه الآخر :

ـ لا أعتقد أنه كان يكسب الكثير من عمله، لأنه كان يؤديه لوجه الله كما يقول وكان يرفض ما أقدمه له من مساعدات بحجة أن مالي حرام، فأنا اكسبه كما يدعي من الإيقاع بالناس بتهم ملفّقة، ثم تعذيبهم ليعترفوا ويقروا بما لفقته لهم.

فأجابه زميله المقيت ذو الوجه المستطيل الخالي من كل تعبير إنساني بكلمات نابية بذيئة وعاد الاثنان للضحك بنفس الطريقة المبتذلة وعاودا البحث مرة أخرى.

بعد أن قلّبوا محتويات الغرفة رأساً على عقب، كان حصيلة بحثهم أن عثروا على ساعة العم حمزة، الشيء النفيس الوحيد الذي كان يمتلكه و كان كثير الاعتزاز بإطارها المزركش وسلسلتها الفضية ولكونها من الذخائر الأثرية التي ورثها عن أبيه، وعندما يئس المتطفلان من العثور على شيء آخر همّا بمغادرة المكان.

خرج مراد أولاً وقبل أن يغادر طارق حانت منه التفاته فوقع بصره عليّ وأنا لازلت متسمرة في الموقع الذي تركني فيه صاحبي فتناولني وأخذ يلّوح بي في الهواء بعنف وقوة محدثاً صوتاً انتشت له

نفسه المريضة وطرُب له مزاجه الشاذ قال لصاحبه بنظرة خبيثة وصوت ماكر :

ـ ما رأيك ؟ هل تعتقد أنها ستنفعنا في عملنا ؟

عاد مراد وقبل أن يتكلم ردّ على نظرة صاحبه بأخرى تفوقها خبثاً ووحشية.

ما هي إلاّ عصا عتيقة بالية،

ردّ عليه طارق شارحاً ميزات كنت أجهلها فيّ :

ـ على العكس إنها قوية مرنة، سهلة الانحناء صعبة الكسر.

ثم انفجر الاثنان بضحكهما الصاخب وغادرا الغرفة.

في باحة الدار.. كانت أم سالم منحنية بوجهها الصامت المتغضن على تنور طينيّ توقد فيه ناراً ، وكلما ألقمته لقمة جديدة علا حسيسه وتصاعدت ألسنة لهبه وتطاير شرره فتتراجع إلى الوراء ثم تعود لتلقمه أخرى. ويبدو أن عمل المرأة وانهماكها فيه قد لفت نظر طارق وأثار فضوله فتقدم منها منادياً بلهجة المحقق :

ـ ماذا تفعلين أيتها العجوز ؟

رفعت وجهها بجبين يرشح عرقاً وعينين غائرتين ذابلتين دون أن تهتم للرد على سؤاله.

اقترب من التنور المسجور مائلاً نحو فوهته التي تتوقد لهباً بغباء وبلادة كأنه يستطلع ما بداخله فنفخ بوجهه ريحاً مستعرة لاهبة حاول اتقائها بتراجعه إلى الوراء فأسقطتني حركته المفاجئة

دون أن يعـي بـين أكـوام الحطـب صـرخ بحـدة وغـضب علـى المـرأة المسكينة وكأنها السبب بما أصاب وجهه من لفح ساخن :

ـ تباً لك.

مـرة أخـرى لم تـرد عليـه واكتفـت أن رفعـت إليـه طرفهـا بـلا مبـالاة وعـادت إلى عملـها ، بينمـا اخـذ يلتفـت يمينـاً وشمـالاً محـاولاً العثور عليّ وقبل أن يتنبه كنت في طريقي إلى فم التنـور المفتـوح في لقمة أخرى.

إن من الخير أن أكون وقوداً ينضج خبزاً يطعم أفواهـاً جائعـة ويملأ بطوناً خاوية من أ ن أكون أداة تعذيب بأيدي الجلادين...

حزمة.. ورزمة !

توقفت السيارة على الطريق الجبلي، إلى اليسار كانت الوديان ممتدة بألوانٍ متدرّجة الخضرة، وعلى الأفق البعيد كانت الشمس الجانحة نحو المغيب تلقي بظلالها الحمراء الداكنة..

من نافذة السيارة خرجت كامرة تلفزيونية تقتنص بعضاً من جمال الطبيعة وتخبئه في صندوقها السحري، تعلّق بالنافذة المفتوحة ثلاثة صبية بوجوه حمراء قرمزية، وبشرة لوّحها هواء الجبل البارد، كانوا يحملون بأيديهم المتخشّبة حزماً من الأعشاب

ارتفعت الأصوات متوسّلة بركاب السيارة تعرض المتاع البخس، قال أحد الصبية :

ـ أعشاب يا سيدي، أعشاب طبية لكل الاستعمالات !

ـ بكم ؟ أجاب قائد السيارة :

ـ بعشر ليرات يا سيدي.

ـ عشر ! لماذا، هل زرعتها بنفسك ؟

ـ لا يا سيدي إنها أعشاب برية.

ـ ولماذا تبيعها بعشر ليرات أيها اللص ؟.

ـ لكننّا نجمعها يا سيدي، نخرج منذ الصباح الباكر، أجاب الصبي الثاني بينما ظلّ الثالث صامتاً

ـ يكفي خمس ليرات..

استمرّ النقاش، تدخّل الراكبان الآخران في المساومة العنيدة، وعندما لم تتم الصفقة انطلقت السيارة تشق السحب التي كانت تمسّد رأس الجبل، ارتفعت قهقهات الركاب على تعليق أحدهم:

ـ يا لهم من قرود مزعجة، بينما كانت القرود تمدّ ألسنتها غيظاً من السيارة وركابها...

بعد منتصف الليل توقفت السيارة في مركز المدينة أمام أحد المطاعم الفاخرة، اتخذ الركاب الثلاثة مجلسهم حول إحدى الطاولات، طلبوا وجبة دسمة، وقبل أن يبدأوا بتناول الطعام عُزِفت الموسيقى وارتفع صوت مطربة السهرة صادحاً بالغناء..

استبدّ الطرب بالجالسين، أخذوا يتمايلون على الأنغام الراقصة.. استحوذ الحماس الراقص على الثلاثة، دارت حمّى الانفعال في دمائهم، غادروا الطاولة المليئة بأصناف الأطعمة وكل منهم يحمل في يده رزمة من الأوراق المالية..

أخذوا يراقصون المغنية، وهي تلهبهم بغنجها الفاضح بينما كانت الأوراق تتناثر على رأسها، وصدرها، وكتفيها وتستقرُّ تحت أقدامها...

أبناء الشمس

انطلقت سيارة الأجرة تنهب الشوارع الإسفلتية في يوم ربيعي صارعت نسماته الباردة الندية ـ بوهن ـ ما تحمله الرياح التي تنذر بقدوم الصيف من سموم وجفاف..

على المقعد الأمامي جلس أخوها إلى جنب السائق، الذي التفت إليها يطلب أذنها ـ بأدب مفتعل ليشعل لفافته، وقبل أن ينتظر جوابها أشعلها فعلاً وأخذ يسحب منها أنفاساً عميقة بطريقة المتمرسين..

اختنقت برائحة الدخان المتصاعد بينما كان الهواء المندفع من النافذة المفتوحة يحمل إليها رماد السيجارة وينثره على عباءتها.

ارتفع صوت السائق يحدّث أخاها حديثاً لم تكن متحمّسة لسماعه أو معرفة فحواه، الأحاديث هذه الأيام أصبحت مبطّنة غامضة، فانعدام الثقة بين الناس أفقدها صدقها وواقعيتها، سيكذب كل منهما على صاحبه وكل منهما يعلم أن صاحبه كاذب، لذا كانت متّجهة بكل جوارحها إلى صغيرها ((هاشم))

الـذي أصـّـر بعنـاده الطفـولي أن يجلـس قـرب النافـذة متطلّعـاً إلى المناظر المتلاحقة أمام ناظريه سريعاً محاولاً جهده أن يتابعها ويعلّق عليها، فيرتفع صوته كلما اجتاحه شعور بالإثارة ساحباً عباءة أمه ليشدّ انتباهها وقد ترتفع عقيرته منشداً بما ادخرته ذاكرة سنواته الخمس من أناشيد طفولية..

ـ ماما انظري.. خراف ! اشتري لي واحداً ألهو به !!

نظرت إليه بابتسامة واعدة فاكتفى منها بهذا الوعد الصامت وتابع نظره منشداً :

ـ عندي خروف ابيض...

لفتت نظرها طيور متفرّقة تسبح في برك ضحلة تحتضر تحت أشعة الشمس أحسّت نحوها بالأسى :

ــ أيتها الطيور المسكينة، ألا زلت وفية لموطنك الدافئ وشمسه المشرقة، يجذبك الحنين إليه فتقطعين الطريق من تلك الأصقاع الباردة، ألم يثن عزمك انهم دمّروا مشتاك الجميل، ردموا مياهه العذبة واحرقوا غابات قصبه الكثيفة ؟ أين اسرابك التي كنا نلوّح لها بأيدينا صغاراً بقلوب يغمرها الفرح عندما كانت تغطي سماء قريتنا ؟!.

أعادها صوت هاشم منشداً بفرح :

ـ يا بط.. يا بط، اسبح بالشط، وقد احمرّت وجنتاه وغمره الابتهاج وعبث الهواء بخصلات شعره الناعم، حتى إذا أجهده

السفر واستنفد طاقته أراح رأسه إلى ذراع أمه وسألها بعينين نصف مغمضتين السؤال نفسه الذي طرحه عليها مراراً :

- **إلى أين نحن ذاهبون ؟**

وقبل أن يسمع الإجابة نفسها :

- **نحن ذاهبون لرؤية شخص عزيز**، كان قد اغمض عينيه وغفا...

بدأ الظلام يغشى الأرض بعد أن استسلمت الشمس لفم الأفق يبتلعها فريسة متعبة، ساحبة خلفها ثوبها الداكن تطرّزه خيوط حمراء دموية تمازجها ظلمة الغسق..

طالما أحزنها منظر الغروب وما يتبعه من وحشة وسكون، تأتي هذه الساعة كل مساء لتحمل إليها كل ما في هذه الدنيا من حزن ووحدة، فيضيق صدرها على قلبها المفعم بالحب والحنين وتذكرت لقاءهما الأول، ، فعلى الرغم مما يثقل ذاكرتها من ذكريات مريرة بقيت تلك اللحظة تحتفظ بألقها وأريجها..

كانت يومها تسير وصاحبتها على الطريق الرئيسي في القرية، عندما توقفت صاحبتها لتجمع غرسات من النعناع البري، فسبقتها هي بخطوات، ، نادتها رفيقتها باسمها لتتوقف، التفتت بنظرة زاجرة مؤنبة لسذاجة تلك الصديقة فالتقت عيناها - صدفة - بعينيه الباسمتين، فشعرت بأنها كانت على موعد مع هاتين العينين، وأنها في أعماق قلبها كانت تحمل بذور حبه التي أخذت

تضرب بجذورها منذ تلك اللحظة، وأن هذا الرجل ذا العينين الباسمتين اللتين تنطويان على عالم من النبل والرجولة سيكون من نصيبها يوماً...

باعدت بين خطواتها تسير نحو عهد يتفتّحُ فيه الورد ويعبق الياسمين، بينما كانت صاحبتها تركض خلفها لاهثة الأنفاس لا تدري ما الذي دهاها..

وفي قريتها حيث تُرصد لحظات العيون بحيطة وحذر، وتراقب الخواطر بتوجّس وارتياب، طوت ضلوعها على سرّها الأثير وانتظرت فارسها الذي كانت واثقة من اختياره لها من بين فتيات العالم ثقة من تلقّى البشارة من لدن عرّاف لا تخطئ نبؤته..

كان هو وعدد من شباب القرية يدرسون في الجامعة، فكانوا مفخرة القرية وموضع احترام وتقدير أهلها..

كل يوم كانت تصعد ـ خلسة ـ على سطح دارهم، ترقب وقت عودته من الجامعة، وعندما كان يمر هو وزملاؤه بازاء البيت، تخرس الأصوات كلها فلا تسمع إلا صوته، ، وتتلاشى الوجوه فلا تعود ترى سوى تقاطيع وجهه فتلقي عليه نظرة عجلى ثم تنزل راكضة قبل أن يُكتشف أمرها.. طوال دراسته وهي تقنع نفسها بتلك النظرة المسروقة من خلال فجوات الجدار، فإذا ما التقت به على الطريق حدّثتها نظرته الباسمة حديثاً لاريب فيه فيتأكد إحساسها بأن بين قلبيهما عهد لابد آن يحين موعد الوفاء به..

وكان ذلك اليوم، عندما رأت أمها تتحدث بابتسامة مشرقة بالسعادة مع أمه وأخته، لقد جاءتا لزيارتهم طالبتين يدها..

ودون أن يكترث هو وأصدقائه لحرارة أيلول اللاهبة كانوا وبحماس لا يوصف يتعاونون في بناء غرفة واسعة مليئة بالنوافذ لتدخلها الشمس من كل الجهات، فقد كان يردد دائماً

- نحن أبناء الشمس، ولاغنى لنا عنها..

عام واحد مرّ عليهما في عشهما الدافئ، يتقاسمان كأس الحب الذي كانت تحمل ثمرته بين أحشائها، وكلما نظرت إلى عينيه الجميلتين المشعتين حباً صادقاً وحناناً فيّاضاً، لا تصدق أن سقفاً واحداً يظلل رأسيهما..

في ذلك الوقت كان يؤدي الخدمة العسكرية، وكان يعود في أجازته الشهرية ليجدها جالسة في انتظاره في مكانهما المفضل تحت ظل نخلتين تعانقتا بشكل غير مألوف كأنهما قوس نصر، هناك حيث كانا يحلمان بغد لا تكدّر صفاءه الأيام، لم يخطر ببالها في لحظات السعادة تلك أن هناك أناسا يسرقون الأحلام البريئة ويطاردون الخيالات العذبة..

كانت جالسة تطرّز بشوق الأمومة ولهفتها ثوباً ابيض صغيراً، تزينه بفراشات ملونة بجمال الطبيعة من حولها، عندما سمعت وقع خطوات أثقلها الهم، التفتت لترى وجهه مكفهراً على غير عادته ولأن عودته كانت في غير موعدها، فلقد خفق قلبها وأحست بنذير

الـشر يـسرع نحوهـا ، سـقطت إبرتهـا وخيوطهـا الملونـة ، جلـس إلى جانبها ساهما صامتاً ، تناول الثوب الصغير، قرّبه من شفتيه وأخذ يلثمه ، قطع الصمت عندما قال يصوت متهدّج مرتجف ، كـأن يداً حجريـة تطبـق علـى حنجرتـه فتقطّـع كلامـه ، قـال عبارتـه الـتي ارتعدت فرائصها فزعاً لها :

- **يبدو انه لن يقدّر لي أن أرى صاحب هذا الثوب !.**

وقبل أن تتمالك نفسها لتستفسر منه أردف قائلاً :

- **أيتها المسكينة الحالمة، لقد أُشعِلت الحرب وعصفت رياح الحقد الهوجاء.**

ومنذ ذلك اليوم لم يعد إلى وحدته ، بعد مدة خرج من البيت وقد دسّ في جيبه الثوب البيض الصغير قاسماً أن لا يكون سوطاً بيد الجلادين..

أنهت السيارة سيرها في الشوارع الخارجية ، وبدأت معالم المدينة تلوح، شوارع واسعة ومُضاءة ، بيوت أنيقة لا يعلم إلا اللّه على أي هم تنطوي قلوب ساكنيها ، ، ثم بدأت الشوارع تضيق وتتعرج لتتخذ شكل أزقة معتمة..

توقفت السيارة أمام مبنى عتيق من طابقين، عُلّقت فوق بابه لافتة مضاءة بمصابيح ملوّنة تحمل اسماً براقاً لا يتناسب مع وضع المبنى البائس ، كان هاشم لا يزال نائماً عندما حمله خاله ودخلا معاً إلى قاعة الفندق الضيقة حيث كان المسؤول يتطلّع باهتمام

فاتر إلى ((نشرة أخبار الساعة الثامنة)) وبعد أن سألاه عن غرفة معينة، أخذا طريقهما إلى الطابق الثاني من المبنى، وعجبت وهي تصعد درجات السلم المظلم متعثّرة كيف يوجد في هذه العاصمة الجميلة التي طالما حلمت بزيارتها يوما فندقاً بهذه الدرجة من البؤس والقذارة، وكيف اختار زوجها هذا المكان بالذات ليكون مكاناً للقائهما..

أمام باب الغرفة وقفت تحاول أن تلمّ شتات نفسها، وأن تستعدّ للحظة اللقاء بينما كان أخوها يقرع الباب قرعاً خفيفاً..

خمسة أعوام من الفراق المر، خمسة أعوام سوداء مدلهمّة لا ينير ظلمتها بصيص من نور، أعوام تلظّت فيها الأكباد، وتفطّرت القلوب ظمأ، حيث شحّت السماء بقطرها والأرض بمعينها، وعلى غفلة من عيون الزمن الجائر جاءت تلك اللحظة لتسرق فيها لقاءاً خاطفاً كان حصاد سنوات العلقم تلك..

كان جلوسها الطويل وهاشم في أحضانها لا يزال يثقل أطرافها، وعندما نظرت إلى وجهه يطلّ عليها من خلف ستار سنوات الضياع يحمل تقاطيع أخرى وسماتٍ غريبة عنها، فقط عيناه ما زالتا تحملان تلك النظرة نفسها التي ترشح نبلاً وشرفاً والتي عشقتها منذ أول لقاء بينهما، عندما رأت تلك العينين غاب عنها وعيها وتهاوت فتلقّفتها ذراعاه المفتوحتان ليضمّها إلى صدره..

عندما أزاح الأغطية المبعثرة على السرير بفوضى ليجلسها، رأت بين الأغطية سلاحاً نارياً فاضطربت لرؤيته عندها ابتسم زوجها قائلاً :

- كيف تظنين أننا نقاتل أعداءنا.

جلست على طرف السرير وهاشم إلى جانبها لا يزال يغطّ بنومه، وعندما أرادت إيقاظه منعها زوجها واخذ يرنو إليه بنظراته الحنون المحببة إليها :

دعيه.. لا اعتقد أنه يستطيع أن يتفهم وضعنا الغريب هذا !.

ثم أخذ يمطر وجهه وجبينه بقبلات رقيقة ودموعه تنحدر على وجنتيه، هنا انفجرت ببكاء أوجعتها محاولتها اليائسة في كبته، وحتى أخوها تهاوى على كرسي قريب ودفن وجهه بين ذراعيه وأخذ ينشج ببكاء نصف مكبوت، فلو كانت الدموع حجراً لانحدرت، كانت لغة الدموع هي الحديث بعد أن عجز اللسان..

تماسكت دموعه واعتدل في جلسته، تنحنح قليلاً قبل أن يوجه كلامه إليها :

- كنت أخشى أن لا تتمكني من المجيء.

- لم يكن الأمر سهلاً، ولكن عندما جاء رسولك و أبلغني رسالتك ومعه ثوب هاشم..

ولم تتم جملتها، فقد اعترض الشجى طريق كلماتها، تنهّد قائلاً :

ـ لن يطول الفراق، سنلتقي من جديد، لقد رتّب رفاقي أمر خروجنا خارج الوطن، ستتم العملية هذه الليلة، وما أن يستقر بي المقام حتى أرسل في طلبكما، وسيكون ثوب هاشم هو الرمز بيننا دائماً.

كان زمن اللقاء محدداً بساعة واحدة فقط، وعندما أزفت لحظة الفراق نهض أخوها قائماً وهو يتطلّع إلى وجهها تارة وإلى ساعته أخرى، اصفرّ وجهها وارتعش قلبها، فهل كان ذلك لقاء أم انه حلم، ساعة واحدة هي كل ما احتلبته من ضروع الأيام العجاف، فلم لم تبلّ غليلها ولم تطفئ جمرة حنينها، فهل عليها أن تودّعه الآن وتعود أدراجها؟.

سارت السيارة مرة أخرى متّخذة طريقها إلى الشارع العام عبر الأزقة الضيقة الملتوية، كان الدوار يعصف برأسها وآثار اللقاء الخاطف يمزق فؤادها، عيناها لا تبصران شيئاً وأنفاسها المخنوقة تمازج أنفاس هاشم الدافئة، وما أن أسندت رأسها المثقل على ظهر المقعد حتى ارتفعت أصوات اطلاقات نارية انطلقت من الأزقة الضيقة نفسها، انتفضت وخفق قلبها إذ شعرت أن تلك الاطلاقات مرّت من خلف أذنيها لكنها لم تتصور قطعاً أن هناك مواجهة دامية بين أحد نزلاء المبنى الذي غادرته تواً وبين قوة عسكرية تحاصره من الخارج !.

وبينما كانت الأصوات تتلاشى تدريجياً مع ابتعادهم عن مصدرها كانت هي تستعيذ بالله من شياطين الأرض وأبالستها

الذين يعيثون في الرض فساداً، يدوسون بأقدامهم بوحشية القلوب النابضة بالحب والأمل، الحالمة بالأمن والدعة، اسندت رأسها مرة أخرى، حاولت أن تغفو قليلاً لعلها تشارك صغيرها حلمه البريء بلقاء شخص عزيز...

القبضة

نظرت إليه بعينين يتطاير منهما الشرر حتى بدت زرقتهما فيروزتين خضّبتا بدم، انتفخت أوداجها فظن أنها ستنفجر، بينما كان وجهها كوجه من اشتعلت فيه الحمى. لم يسبق أن رآها بهذه الحدة ولانفعال، كانت بركاناً هائجاً يجتاح ما أمامه بلا هوادة،

ما الذي أثارها لهذه الدرجة ؟ كانت تبدو دائماً هادئة رصينة، كيف أخفى ذلك المنظر البارد هذا الجنون والهيجان ؟ كيف استطاعت أن تخفي ببياضها الثلجي هذا اللون الكالح ؟

هل يمكن لإنسان أن يتصنّع وينافق لسنوات عدة، هل هذه هي الحقيقة المستورة، فإذا ما سقط القناع الزائف المتحضّر ظهرت الطبيعة المتوحشة في أدنى صورها ومظاهرها ؟..

كان ينظر إليها مشدوهاً، عبثاً حاول تهدئتها، لقد سبق أن تجاذبا أطراف النقاش وعلا صياحهما ولكنها لم تكن كاليوم.

كان يقف قرب الباب، لأنه كان في طريقه خارجاً عندما لحقته، بعد أن احتدم بينهما النقاش على مائدة الطعام، وعند

الباب عرضت له آخر فصول عراكها، وتفادياً لتصاعد الموقف فتح الباب وخرج متبوعاً بصراخها مُشيّعاً بصفعة الباب خلفه، وما أن سار بضع خطوات حتى سمع صوت تكسر زجاج متلاحق، فاستنتج أنها سحبت غطاء المائدة فأسقطت ما كان عليها من صحون وأدوات.

سار ساحباً خطاه، لا يتمالك نفسه كمن تلقّى صفعة أفقدته توازنه، في طريق تظلله أشجار وارفة من الجانبين، امتدت أغصانها إلى عنان السماء في تيه وزهو، فخورة بخضرتها الدائمة وبما تلقاه من رعاية واهتمام..

كان الشارع أنيقاً متّسقاً تُحاط جذوع الأشجار الضخمة بسياج من الزهور اليانعة حزاماً يهبها البهاء والروعة ويستمد منها الأمان والقوة..

لقد كان مفتوناً بهذا الشارع يوماً ما، وكم كان يحلو له أن يقطعه جيئة وذهاباً يستنشق ما تهبه الأشجار من هواء نقي منعش، يستاف عبير الزهور الغضة بنهم وشوق لاحتضان هذه الطبيعة الآسرة وضمّها إلى صدره، واليوم يسير في الشارع ذاته فيشعر أن السماء تكاد تطبق على الأرض لتخطف أنفاسه، وأغصان الأشجار الدانية رؤوس شياطين تطارده بترانيم السحرة وتضحك من مأساته ومعاناته، وزهوره الناعمة أشواك تغرز في أعماقه

لتدميها بوحشية ، إنه يسير في غابة مظلمة تتعثر خطاه وتطارده الأشباح تحاول أن تزهق روحه وتسلبه الطمأنينة والهدوء..

قطع الشارع العام المليء بسيارات تحكي رفاهية مالكيها ، خلف كل مقود كان هناك وجه عابس مقطب، ، ما اقلّ الوجوه الباسمة ! أما المارّة فرغم اتّصافهم بالصحة والأناقة فهم يبدون ككائنات آلية مسيّرة تحركها من البعد قوة هائلة خفية..

قادته الشوارع المزدحمة إلى حديقة عامة صغيرة، أرض عشبية خضراء تضم مقاعد والعاباً ، كان هناك أحواضاً صغيرة تحوي رمالاً ناعمة مخصصة للعب الأطفال ولهوهم، كان في الحديقة روّاد قليلون تدثروا بمعاطفهم يراقبون أطفالهم، فانزوى بنفسه عند حافة أحد تلك الأحواض متطلعاً إلى الرمال الذهبية ، اخذ قبضة منها فانسابت من بين أصابعه باردة ندية كما انسابت سنوات عمره العشر الماضية في مدينة البرد والضباب، والتي كان حصيلتها شهادة مرموقة وتجربة اجتماعية فاشلة يجترّ كل يوم آلامها المريرة وضحيتها الأولى طفل بريء لا ذنب له في الصراع الضاري الذي يدور بين أبويه ، وهو يقف مكتوف اليدين قد أسقط في يده لا يدري كيف ينقذه من براثن تلك الشيطانة المتمردة التي هي أمه !!

كان شاباً بسيطاً تملؤه أحلام السفر والتعلم والشهادة العليا ، لم ير في تلك الفترة سوى تلك التطلعات، أنسته أمنياته أنه الابن

الوحيد لشيخ عجوز كانت أقصى آماله أن يقضي ما بقي له من عمر قرب وحيده، وأن يغمض إغماضته الأخيرة على صورته الحبيبة، لذا كان شبه متعجب وهو يرى والده يبكي بتلك اللوعة والحرقة في لحظات الوداع الأخيرة وتساءل في نفسه :

أليس الأحرى أن يكون سعيداً ؟ لأن ابنه الوحيد سيسافر ليكمل تحصيله العلمي ؟!.

كان يعيش حلماً، وكأن سحابة سماوية قد نزلت من عليائها بكل تواضع ودعة لتحمله بحنو على أجنحتها الضبابية وتنقله إلى عوالم خيالية ساحرة كل ما فيها يخطف الأبصار ويحبس الأنفاس..

لم يكن انتسابه للجامعة أمراً عسيراً، فما كان عليه سوى أن يجتاز اختباراً بسيطاً نجح فيه بتفوق، ليغرق بعدها في دوامة الدروس والمحاضرات، وعلى مقاعد الدراسة تعرف عليها !.

((إنجيلا)) فتاة ليست كسائر الفتيات، متميزة ببساطتها وعفويتها، ملابسها تخلو من مظاهر التبرج والابتذال، شعرها يكاد يكون حليقاً، تحمل على كتفها حقيبة كبيرة تشبه حقائب الباعة المتجولين مليئة بالكتب والمراجع..

كانت تشبهه في الكثير من الصفات فهي مثله جادة في تطلعها إلى هدفها ساعية إلى تحقيقه، قدمت إلى لندن من إحدى المناطق الريفية حيث نشأت في جو محافظ ـ حسب مفهومهم

للمحافظة ـ وسط أسرة مترابطة، فأبوها وأخواها يعملون في مصنع صغير لصناعة الجلود تملكه العائلة منذ أجيال..

عندما التقيا، قدّمت نفسها إليه بطريقة بعيدة عن التكلف، قالت له بكل بساطة:

ـ أنا زميلتك إنجيلا، ويمكنك أن تناديني آن، وعندما لم يمد يده لمصافحة يدها الممدودة سحبت يدها بدون توتر أو ردود فعل ودون أن تنتظر منه توضيحاً لتصرفه..

ومنذ ذلك اليوم لم تفارقه، نشأت بينهما علاقة جادة يرسم الاحترام والاستغراق في الدرس حدودها العريضة، ولأنها كانت مواطنة فقد استطاعت أن تيسّر له الكثير من المعاملات التي لم تكن لتتيسر لولا تدخلها..

كانا يمضيان معاً أغلب أوقاتهما بين قاعة المحاضرات أو المكتبة أو في ممرات الجامعة وجنانها المزهرة.

لقد دعته اكثر من مرة ليزورها في شقتها فأوضح لها أن طبيعة العلاقة بينهما لا تسوّغ له هذه الزيارة فاقتنعت وامتنعت عن الطلب..

كانت تسأله عن الكثير عن دينه سؤال المتعطش للمعرفة الساعي للوصول إلى جوهر الأمر وحقيقته فكان يسره أن يجيبها بطريقة واضحة بسيطة، لم يخطر بباله حينها أنها أرادت من ذلك أن تحيط به إحاطة تامة لتجد منفذاً تتسلل منه إليه، لأنها وجدته

يختلف عن غيره من الشباب المغترب فهو قلعة يستعصي عليها اقتحامها فكان عليها أن تبحث عن سبيل آخر..

في يوم دعته إلى زيارة عائلتها في الريف فلم يجد بأساً من تلبية الدعوة، وفي أحضان الريف الهادئ تعرّف على أسرة متوسطة الحال تنظر بعين الفخر لابنتها الوحيدة، لطموحها العلمي وذكائها الحاد وأخلاقها المتّزنة.

انتهت سنوات الدراسة فحصل هو على عمل مرموق في أحد المعاهد العلمية بينما عملت هي أستاذة جامعية لشغفها بالتدريس..

أتاح له الاستقرار الذي وفره له العمل والسعة المادية التفكير في البحث عن شريكة يأنس بها ويسكن إليها، في ذلك الوقت أخذت ذكرى ((أنعام)) يتيمة عمه الوحيدة التى تربّت في أحضان أسرته تفرض نفسها على ذاكرته بوداعتها وطيبتها المتناهية، قفزت صورتها ـ بعينيها العسليتين ووجنتيها المتوردتين بلون الصبا والحياء ـ إلى مخيلته.. تذكر كم كان يضحك في سريرته على رغبة والده في أن تصبح أنعام زوجته كان يراها رغبة في غاية السذاجة فأنعام رغم ميزاتها كلها لم تكن ترقى في ذلك الوقت إلى مستوى أحلامه بشريكة العمر. إنه الآن لا يستطيع العودة إلى بلده فوالده العزيز انتقل على جوار ربه وأنعام أصبحت نجمة في السماء ؛ بالرغم من تألقها وبهائها فهي بعيدة المنال وما يفصل بينهما الآن ليس آلاف الكيلومترات من الماء واليابسة، وليست

قوانين وضعية صارمة تحول دون سفرها إليه، بل سنوات من الجفاء والتنكر وضياع الأحلام. لقد أصبحت ابنة عمه صفحة من صفحات الماضي المطوية التي لا سبيل لإعادة فتحها مرة أخرى وكلما تذكر العينين الدامعتين بصمت وانكسار في آخر لحظة جمعتهما أقنع نفسه بأنه لم يعدها بشيء ليرتاح من وخز الضمير..

عندما قرر الزواج كانت آن المرشحة المثالية في ذلك الوقت لعمق العلاقة يبنهما وقدمها، والشوط الطويل الذي قطعاه في الانسجام والتفاهم، العائق الوحيد والمهم هو اختلاف الدين الذي أضحت تعرف عنه الكثير من خلال ما سمعته منه، حتى اصبح مقتنعاً بأنها ستستجيب له وبسرعة لو انه دعاها لاعتناق دينه..

في تلك الفترة قلّت لقاءاتهما بحكم اختلاف ظروف العمل لكنها كانت تحرص على الاتصال به دائماً وتزوره في عمله، فكان يلاحظ ما طرأ عليها من تغيير، فقد أخذت تعتني بمظهرها، أرسلت شعرها الحليق لينمو وينسدل على كتفيها مسترسلاً ناعماً كخيوط الذهب، أما بنطالها البالي فقد استبدلته بفستان أنيق تم اختياره ليعبر عن ذوق وخبرة.. لم تكن بارعة الجمال لكنها كانت جذابة قريبة إلى النفس وكان يشعر براحة كبيرة عندما يكون برفقتها، كما إن الجمال لم يكن ضالته المنشودة هناك أولويات تشغل تفكيره ويسعى للحصول عليها.

إنه يدرك تماماً مقدار تعلقها به فهذا يبدو جلياً، وهو لا ينكر تعلقه بها هناك شيئاً ما يشده إليها وكان هذا كافياً بالنسبة إليه..

لا يمكنه أن ينسى ذلك اليوم الذي فاتحها برغبته في الاستقرار، وانه يتمنى أن تشاركه رحلة أيامه القادمة، لكن عليها أن تبدي استعدادها لتضحية كبيرة وهي التخلي عن دينها ودين آبائها لتعتنق ديناً جديداً فارتباطهما لا يمكن أن يتم إلا بهذا القيد فهل يمكنها أن تقدم على مثل هذه التضحية؟ صمت منتظراً ردّها ! لقد برقت عيناها بشكل غريب، وتصاعد كل ما في عروقها من دماء إلى وجهها مرة واحدة، لم يكن عسيراً عليه أن يلاحظ أن هناك صرخة تعبر عن فرحة اجتاحت كيانها حاولت جاهدة أن تكتمها كي لا تنطلق رغماً عنها إنها اللحظة التي انتظرتها طويلاً تحل الآن فمن يلومها لو أطلقت العنان لأحاسيسها ؟ لكنها كانت اعقل من ذلك كثيراً فتريّثت حتى تمالكت نفسها واستوعبت لحظتها وأجابت بتأنٍ مفتعل :

ـ إنّ ما سأقدم عليه ـ لو وافقت على الارتباط بك ـ ليس تضحية كما تظن بل عبور رائع من الظلام إلى النور ومن الفوضى إلى الاستقرار، إنها رحلة للسمو والارتقاء لا يرفضها ذو عقل، وليدن آبائي بما شاءوا

ـ واهلك ماذا سيكون موقفهم..

ـ أنا كفيلة بإقناعهم.

وبأيسر مما كان يتوقع تم كل شيء، فانتقل ليعيش في شقتها الجاهزة حيث مرّ العامان الأولان بشكل طبيعي، رزقا خلالهما بابنهما ((**هاني**)) أو ((**هني**)) كما كان يحلو لأمة أن تناديه..

كان هاني يحمل سمات أطفال بلاده وملامحهم ؛ بسمرة تحاكي لون سنابل القمح وقد لوّحتها الشمس بدفئها، وشعره الداكن وعينيه الكحيلتين السوداوين.

ومع قدوم هاني بدأت رياح التغيير تعصف بهما وأخذت بذو ر الشقاق تنبت في ارض ممهدة. تغيير أثار استغرابه، علله بادئ الأمر بلهفة أم حديثة العهد بأمومتها، حيث يصبح الزوج في الدرجة الثانية من اهتمامها، لكن وجوده صار بالتدريج هامشياً، ثم صار عبئاً ثقيلاً.

اصبح البيت كبيت عنكبوت لامكان له به، أما تعاليم الدين التي كانت تبدي شوقاً لتعلمها أصبحت تعسفية لاسبيل لتطبيقها، كما إنها لا تتناسب مع روح العصر ومعطياته.

منعته من التحدث مع هاني بلغته خوفاً من أن فسد سلامة نطقه، اعترضت بشدة على ختانه فتلك تجربة رهيبة لن تعرض الطفل لها مهما كلف الأمر..

كبرهاني،وكبرت الهوة بينهما حتى صارت سحيقة لاسبيل لاجتيازها، صبر من اجل ولده خوفاً من أن يغرق في طوفان البلد الغريب والوضع الأغرب، اعتقد أن وجوده بقربه ـ مع سلبيته

الصارخة ـ أفضل من عدمه لعله يستطيع تحت وضع ما التدخل لصالحه، فمن الواضح أنها تريد تربية الطفل كما تريد هي..

هل ارتدّت ؟ بل هل أسلمت حقاً ؟ أم إن ما أظهرته كان نفاقاً لتصل إلى هدفها ! الحصول على طفل منه، حقيقة اتضحت له الآن بوجهها البشع وعندما وصلت إلى غايتها نبذته كعلبة صفيح فارغة، اختارته هو بالذات، أوقعته في شباكها لأنها تعلم أنه رجل لا يجري الموت في عروقه، ولا تلوث الأوبئة دماءه النقية، وهو في وضع لا يستطيع مواجهتها إذا نشبت الحرب بينهما، وكان لها ما أرادت !!.

أعوام أربعة وهو يعيش الجحيم متحملاً أنكالها وسعيرها على أمل أن تهديه الأيام لطريقة ينقذ بها ولده، فكلما خسر معركة لملم قواه واستعد لمعركة أخرى..

لا يدري كم من الوقت مر عليه وهو جالس على حافة الحوض، لقد غابت الشمس وغشي الظلام الحديقة وغادرها روادّها، ألفى نفسه وحيداً تعبث أنامله بحبات الرمل في تأمل عميق لماضي أيامه..

غادر مكانه متوجهاً إلى بيت صديقه ((حسام)) شاب لبناني قد عرّكته الغربة وأكسبته خبرة وتجربة فلم يكن مستغرباً أن يلجأ إليه صديقه دائماً طالباً منه المشورة، عندما فتح له الباب دخل صامتاً فلم يثر منظره دهشة صاحبه فقد اعتاد أن يراه مؤخراً

على هذا الحال بسبب كثرة شجارا ته مع آن وكثرة إيوائه إلى بيته حتى بات الأمر مألوفاً..

جلس غارقاً في التفكير يودّ لو يطلق العنان لدموعه ولكنها كانت دائماً عصيّة عليه لا سبيل لاستنزالها بالآلام والمآسي، حتى حين ورد إليه نبأ وفاة والده برسالة طويلة مفصّلة اعتصر قلبه ألماً وذاب فؤاده جزعاً، أما دموعه فقد غاض ماؤها وأبت أن تغادر جفنيه، هكذا كانت طبيعته..

دخل عليه عصام الغرفة فوجد وجهاً تنطق تقاطيعه بالهم والمعاناة، فلم يدر كيف يبادره بالكلام، كان يعلم أبعاد مأساته ويعلم ببلواه لذا رمقه بنظرة ترشح مواساة وغادر الغرفة..

خلال تغيّبه في بيت حسام حاول الاتصال مرات عدة دون جدوى لم يجدها في البيت أو الجامعة فأثار الأمر قلقه وحيرته، لذا قرر الذهاب إلى البيت ليواجهها ويبحث معها عن تسوية للخلاف، وأن يتحدثا كشخصين متحضرين بينهما وشائج مشتركة أهمّها ابنهما، عازماً هذه المرة أن يخرج منتصراً مهما كلفه هذا الانتصار، أعدّ في ذهنه ما سيقوله لها سيشحذ أسلحته كلها وإذا لزم الأمر سيناشدها بالصداقة الحميمة التي ربطت بينهما يوماً فقد تلين وتستجيب..

اقترب من الباب بيد مرتجفة، أدار المفتاح وفتح الباب، وما أن اقترب بضع خطوات حتى وقعت عيناه على منظر أطار صوابه !

كانت الشقة خالية ! ليس فيها قطعة أثاث واحدة، سوى ما تناثر هنا وهناك من متاع زُهد فيه.

أسرع راكضاً إلى غرفة هاني، كانت هي الأخرى خالية لقد اختفى سريره وألعابه، بل وصورته المعلقة على الجدار..

في غرفة نومه لم تبق سوى أشيائه مرمية بفوضى، وعلى المرآة المثبتة على الحائط عُلّقت ورقة كُتب عيها بخط آن :

لا تحاول أن تبحث عنا، فما من قوة في الأرض قادرة على أن توصلك إلينا، من الغباء أن اترك ولدي ليتربى في كنف رجل مثلك يعيش أفكاراً غريبة بالية، لقد بعت أثاث البيت وأسلمت الشقة لمالكها ـ يمكنك استئجارها إذا شئت ـ ولكن عليك أن تنسى إن لك علاقة بإنسان أسمه هاني..

زلزلت الأرض تحت قدميه، ودار به الفضاء، سقطت الورقة من يده وتهاوى بعدها على الأرضية العارية، اخذ ينشج ببكاء الواله الثكل،

ولأول مرة يدرك كيف يكون بكاء الآباء ((بلوعة وحرقة)) عند فقد الأبناء !..

كي لا يذبل السوسن

قد أبدو غريبة في نظر الآخرين ! خصوصاً أولئك الذين لا يصدقون إن الحب يمنحنا الحكمة ويجلي بصائرنا..

آفاق واسعة تتفتح أمامي، فتمتدّ حدود رؤيتي إلى أبعاد لامتناهية.

أنا أرى ما لايراه الآخرون، لذا يبدو تصرفي غريباً ومجانباً للمنطق..

دنوت منه، وضعت كفي تحت ذقنه ورفعت رأسه, تطلعت مباشرة في عينيه، غصت في بحرين عميقين لاتحدّهما الشطآن.

كانت واحدة من آلاف المرات التي أدرك فيها مدى حبي له، هذا الرجل الرائع، قلت له :

ـ عليك أن تفكر في الزواج يا هشام!

ابتسم وخفض بصره دون أن يرد..

ربما من العسير أن يفهم الآخرون شعور امرأة تعرض ـ بهذه البساطة وبهذا الكم من الحب ـ على زوجها فكرة الاقتران بأخرى..

لست امرأة استثنائية، بل امرأة تربطها برجل علاقة استثنائية تفوق روابط الحب والزواج، شيء غريب غرابة الروح الإنسانية، رائع وغير مألوف وأقرب إلى الخيال، صورة نادرة من الصعب تكرارها، وأعتبر نفسي فيها من المحظوظات في هذه الدنيا، فإذا كانت الحياة قد حرمت الكثيرات من الحب والسعادة فذبلت في أعماقهن المشاعر الحلوة، وغادر الدفء أيامهن، فإنها منحتني الكثير وعاملتني بسخاء..

دخل هشام حياتي صبياً مشاكساً فأحببته رغم شقاوته، تعلقت به كتعلقي بكل ما يعود لزوجي، ـ فهو أخوه الوحيد ـ احتضنته كأم أو أخت كبرى، غسلت ثيابه، وساعدته في تحضير دروسه، عنّفته بشدة لشقاوته، عملت له ما تعمله الأم لأبنائها، وحتى عندما أنجبت أبنائي الثلاثة بقي هو الأثير على قلبي..

كبرت مشاعري نحوه وهو يكبر، وعندما صار رجلاً تحوّل شغفي به إلى احترام وإعجاب، كنت أنظر إليه فخورة

أي كيان رائع شاركت في صنعه !!

عشت السعادة حتى ألفتها، ركنت لأيامي الوديعة وأسلمتها قيادي لم أدرك أنها ستنقضّ عليّ مبدية لي وجهاً آخر كالحاً كئيباً..

عالمي الزاخر بالهناء أصبح مقفراً، أفقت على فصول المأساة التي أبعدت عن دنياي أعز مخلوقين على قلبي، هشام الذي سافر لإكمال دراسته ثم زوجي الذي غاب في رحلة اللاعودة..

أمعنت الحياة في إيذائي، صفعة عنيفة جعلتني أترنّح، أوشكت على التداعي وكان التماسك والصمود بالنسبة لي خياراً مستحيلاً كنت امرأة عرفت الحب فيضاً متدفقاً غرقت في نشوته وعطاءاته الرائعة فكيف ستمضي بها الحياة من دونه ؟ أدركت مدى هشاشتي، كان الحب يسندني ومنه استمد عزم وجودي، فكنت كنسمة ندية رقيقة تنساب بوداعة وشفافية فاصطدمت بزوبعة عنيفة حوّلتها إلى أشلاء..

وجدت نفسي ـ فجأة ـ مع أطفالي الصغار وحيدة، ضائعة، حزينة وأحب إنسانيين إلى قلبي نائيين عني..

أعوام خمسة وهشام بعيد عنا، كنت أعلم مدى ألمه لذا حملت مع همومي هموم غربته وحزنه ووحدته..

وعندما عاد من سفره تزوجنا !!.

أمر أدهش الآخرين، أنا نفسي لم أكن قادرة على استيعابه جيداً، جلست مع نفسي كثيراً أحاول أن أدرك كنه مشاعري نحوه، أي نوع من أنواع الحب أحمله له، أما هو((فربما)) كان يشغله التفكير بأيتام أخيه، أكبرهم سناً كان في مثل عمره تقريباً عندما احتضنته برعايتي.

كان يدرك جيداً إنه لا يستطيع القيام بواجبه نحوهم إلاّ إذا كان هو رجل البيت. فهمته جيداً وقدّرت دوافعه، إنه عاقل ونبيل وحساس لذا لم أجرؤ على معارضته..

ودخل هشام حياتي مرة أخرى ودخلت معه السعادة من جديد أما الحب فلم يغادره لحظة واحدة..

تفانيت في خدمته، وتباريت في إسعاده، أحببته كما يستحق، أذبت كياني فيه بلا ندم أو استحياء، كنت أتمنى أن تتم الأقدار كرمها معي فتمنحني ثمرة منه تحمل سيماءه، طفل يشبهه، أمنية أبت الأقدار تحقيقها، وخسارة شعرت بطعم مرارتها في فمي إلاّ إنني لا أستطيع إلاّ أن أكون ممتنة لتلك الأقدار، ألم تمنحني هشام وأخاه من قبل؟ صنفان نادران من البشر لا يتقنان سوى فن الحب وموهبة إسعاد الآخرين..الآن وقد أكمل أكبر أبنائي دراسته الجامعية، والآخران على أبواب التخرج، أنظر إلى هشام فأجده في عنفوان الرجولة وبهاء الشباب يرشح نبلاً وعطاءاً، جوهرة نادرة أثيرة ترتعش لها الروح شغفاً، أشعر أحياناً إنها تخصني وإنها لي دون الآخرين لا يجرؤ أحد على أن ينازعني إياها، ألم أسهم في صقلها لتكون بهذا الشكل المتألق الرائع، لكنني صرت أشفق عليها، أخشى أن يسلبها دوام العطاء بريقها الأخّاذ..

زوجي - ربما - يحتاج إلى امرأة أخرى تناسبه الآن أكثر مني ومشاعر - أخشى - إنه يفتقدها في بيتي..

أحبه أعظم مما تحبه أية امرأة أخرى، أحبه لدرجة تدعوني لأن أمنحه لأخرى أملاً في أن تسعده..

اليوم صرت أفكر في زواج هشام، ((وربما)) سيفكر هو بذلك غداً لكنني لا أخشى من وافدة جديدة، ولا يرهقني التفكير في أنفاس أخرى ستشاركني فضاءاتي، أو عطر جديد سيعبق في أجوائي، ربما لأنني واثقة من نبل هشام وعمق عواطفه نحونا جميعاً وأننا كيان واحد يصعب تفتيته، حياتنا معاً شجرة راسخة الجذور كريمة الأفياء يحصّنها الحب، ، الحب الذي يمنحنا الحكمة ويهب لنا بصيرة نافذة..

أحزان الآس

يتكرر المشهد كل مرة، كأنها تنظر أليه من خلال صورة صامتة، يعاوده الحلم بالتفاصيل ذاتها !! هي ؛ تقف على الشاطئ، قدماها مغمورتان بالمياه الباردة، تنظر إلى صفحة البحر، من بعيد يبدو قارب صغير يُقلُ أناسا لا تستطيع أن تتبين ملامحهم لكنها تشعر إنهم يخصّونها، وإنها ينبغي أن تكون معهم لا أن تظلَّ على الشاطئ تتملكها مشاعر الوحدة والوحشة..

أكثر ما يؤذيها في المشهد الضبابي هو لون الجو القاتم ؛ السماء، والماء، والأفق تبدو جميعاً بلون واحد غارق في صمت يخبئ نُذُر عاصفةٍ توشك على الانطلاق، هناك إعصارٌ قادمٌ تكاد تسمعُ صوته يزمجر خلف السُتُر الرمادية..

تُرى أيّ مصير ينتظر الزورق وركّابه لو أُذِن لتلك العاصفة أن تتحرر وتُطلُّ برأسها ؟.

ومـع الخطـر الوشـيك فقـد كانـت تتمنـى أن تكـون معهـم؛ وقوفها الآمن عند الشاطئ لا يشعرها بالطمأنينة ولا يقدم أيّ عزاء لروحها المشتتة بين الوحدة والوحشةِ.

من هم أولئك الذين تركوها وحيدة على الشاطئ ؟ لماذا تخلّو عنها؟ ألا يتسّع زورقهم لوجودها بينهم، أم أن نصيبها أن تبقى مهجورة على شاطئ باردٍ موحش ؟!

يطاردها الحلم اللعين، يولّد في أعماقها مشاعر لا تستطيع اجتثاثها لعمقها وتجذّرها، في الحلم هي لا تبكي، بل تظلُّ صامتة تراقب الزورق الموغل في الابتعاد، ولكنها حين تفيق من نومها لا تغادر الفراش إلا بعد أن تغرق وسادتها بالدموع..

تلك المرأة الأربعينية !! إلى أيّ مدى تتمكن من استيعاب واقعها الذي تعيشه، وبأي دهاليز ستتوارى لو شاءت الاختباء من ذاتها، لا يبدو أمامها أيُّ مُتّسع للانطلاق هاربة، فهناك من يحاصرها عند كل مفترق، لتعود مرّة أخرى منطوية على آهاتها ومشاعرها المهيضة..

عليها الاستمرار في الحياة كقدرٍ لامفرّ منه، فالوجود نعمة، والحياة فرصة للأحياء، ولكنها عجزت عن أن تجعل لوجودها قيمة ولحياتها معنىً، ظلّت تعيش على هامش حياة الآخرين وتلوذ بظلٍ لا تنتمي إليه، تخبئ مشاعر لا تريد لأحد أن يعرفها لأنها من شؤونها الخاصة، وعلى كل حال الآخرون لاتهمهم تلك المشاعر في شيء..

عودّت نفسها على الصمت والاستسلام، تراقب عجلة الحياة تنطلق بسواها بينما يذبل كل شيء في حياتها ويتلاشى، من العسير والمجهد للروح الاستمرار في حياة لا يشعر الإنسان فيها بحب شيء أو انتظار شيء، ولا يتحرك في أعماقه شوق أو تلهف لشيء..

دفعها اليأس للتفكير في حل ولو تافه أو مثير للسخرية، لماذا لا تقتني شيئاً يخصّها، شيئاً تراقبه ينمو أمام عينيها، ابتسمت عندما فكّرت فيما تفعله النسوة الغربيّات اللواتي يعشن وحيدات، غالباً يقتنين كلاباً أو قططاً، ضحكت ساخرة وهي تتخيل بيت أخيها المليء بالجراء الصغيرة، التي تسمع ضجيجها طوال اليوم، كان بالإمكان أن تأنس بوجودها لولا أن هناك أبواباً وجدراناً وأوامر صارمة حالت دون تسللها عبر الفناء الصغير المشترك بين شقتها وشقة أخيها..

ذلك الفناء ((المنسي)) هو الشيء الوحيد المشترك بينها وبين بيت أخيها، ومنه يمكن أن يبدأ الحل، ستزرع فيه نبتة ما، ورداً مثلاً

ولكن الورد يذبل سريعاً، يقهره الخريف وقد ملّت نُذُر الخريف وآفاقه القاتمة التي تلوح في سمائها، ستزرع نبتة ((آس))، فوحده يستطيع التصدي للخريف..

خيار ساذج، ولكنها قررت تنفيذه، فحينما تخلو الحياة من الأنس والحب والرفيق، حين تفتقر إلى لمسة حانية أو خفقة قلب،

حين تعشش الوحدة في كل زواياها فلا اقل من نبتة ((آس)) في فناء خلفيّ..

لم يكن أمراً عسيراً، ليس حلماً تبدده تجلّيات الواقع، كانت نبتة ((آس)) خضراء يعبق الجو بعبيرها الناعم تسمع آهات مكظومة ؛ تراقب دموعاً تجري بصمت في لحظات تخطر في الذاكرة صورة قارب صغير يبتعد فوق مياه رمادية تخبئ عاصفة هوجاء بين طيّاتها..

لماذا اقتُلِعت النبتة من الفناء ورُميت في الشارع حيث تلقّفت أغصانها الخضراء الغضّة أيدي الأطفال ؟

الجواب يمكن أن يكون منطقياً جداً وغير قابل للنقاش فأصحاب الشقة المجاورة قرروا إدخال مساحة الفناء إلى شقتهم، فالجراء الصغيرة بحاجة إلى غرفة إضافية، فهل من المعقول حينها الإصغاء إلى آهات ((الآس))..

أحلام الوهم

أماله ثقل العلبة التي يحملها ؛ الوجوه المتعبة تتجهم غالباً وتعبس، ولكن على وجهه هناك ظلال ابتسامة وديعة، ربما لأنه كان يتخيل المشاهد القادمة، تنبأ بما سيحصل عندما تطأ قدماه الدار ومعه العلبة !!

أبناؤه سيلتفّون حوله، يمطرونه بالقبلات، ثم ينسون بعدها وجوده ، سيتحلّقون حول العلبة، يمزّقون أغلفتها، ستذهلهم الدهشة عندما تقع أعينهم على اللعبة في داخلها، مجسّم مصغّر لدراجة نارية، حلم حققه لهم بعد جهد، فهو لا يستطيع أن ينسى خيبتهم عندما عجز عن شراء ذلك القطار الذي ينفث سحباً من الدخان والذي اشتهوه ذات مرة..

ـ **مساكين أطفالنا**، قالها لنفسه، **أبوتنا تخذلهم أحيانا كثيرة، لا تتسع إمكاناتنا لأحلامهم، قبلاتنا وأحضاننا الودودة لم تعد تقنعهم، إحساسنا نحوهم بالمسؤولية، يتزايد؛ همّنا لأجلهم**

يؤرّقنا، ولكن هذا لا يكفي في نظرهم، هل هم جاحدون ؟ أم نحن المقصّرون ؟.

تخيل زوجته وموقفها ، ستستنكر بقوة ، يفهم ذلك منها عندما تقف صامتة بلا تعليق ، ربما ستنسحب حانقة إلى المطبخ ،وتبقى غاضبة بقية اليوم..

أنها امرأة عاقلة ، لكنها لا تجد فرحة الأطفال مبرراً كافياً لهذا الإسراف الصارخ ، لذا قرر عدم الاهتمام بموقفها ، سيشغل نفسه مع الأطفال حتى تمر الأزمة..

وصل البيت ، وضع حمله الثقيل وأراح جسده المتعب على اقرب كرسي ، تحقق نصف النبوءة ، زوجته احتجّت بعنف أخرجها من صمتها وبدرجة فاقت تصوراته ، صرخت بوجهه :

ـ كان يمكننا دفع المبلغ في أمور اكثر أهمية وإلحاحا، ستائر غرفة الجلوس نسيت لونها الأصلي، وسوف لن أتحدث عن أحذيتنا البالية إذ لا جدوى من الكلام..

ولكن ماذا عن نصف النبوءة الآخر ؟

لماذا لم يتحلّق الأولاد حول اللعبة ، لماذا لم يحبسوا أنفاسهم وهم يعرّونها من أغلفتها الكرتونية ، إنها غالية الثمن بلا شك ، سعرها يعني أن أمامه شهرين من التقشّف وترشيد المصروفات ، ألم ينتبهوا إلى صورة الدراجة الملونة المرسومة على العلبة ؟ ألم تُلفت أنظارهم ، ويشدّهم الفضول إليها ؟

نعم لقد شاهدوها جميعاً ،

لكنهم انسحبوا غير عابئين ؛ صاحوا جميعاً بصوت واحد يرشح لامبالاة:

ـ كنا نودُّ أن تشتري لنا كمبيوتر...

الحب .. يبدأ حلماً

ـ هل تنوين العيش هكذا بقية حياتك..؟

يا له من سؤال يوجّه إليّ من الضيف الجالس أمامي بعفويته وثقته المفرطة بنفسه.

هذا الغريب الذي ظهر في حياتي فجأة.

هل كان ذلك السؤال نقداً منه أم تهكماً ؟

ما الخطأ في حياتي يجعله يبدي هذه الملاحظة الصارخة ؟

لقد نفذ سؤاله سهماً إلى أعماقي، اخترق أضلعي وأستقرّ في فؤادي، ابتلعت ألمي بصمت، حاولتُ أن أتبين من ملامحه دافعه للسؤال، وعندما لم أجد ما يشير إلى نيّة سيئة حوّلتُ بصري بعيداً دون أن أرد عليه.. ببساطة لم أعرف بماذا أجيب..

في أول زيارة له في بيتنا ، وعندما فتحتُ الباب اعتقدت أن الطارق قد اخطأ في العنوان، وقف أمامي مباشرة بقامته المديدة وبشرته السمراء وابتسامته الواثقة، كنت على وشك أن أقول له :

ـ **أنت مخطئ يا سيدي**، عندما سال عن والدتي، عرّفها بنفسه بسرعة وطلاقة، وعندما عرفته هتفت مرحبة به، كان ابناً لإحدى قريباتها عاد تواً من خارج الوطن وينوي الاستقرار في مدينتنا..

في دقائق من اللقاء اختزلت أمي تاريخها مع عائلته، استعادت شريط الذكريات بسرعة هائلة، وهو يستمع إليها ويعلّقُ باسماً، بينما جلست صامتة أراقبه من بعيد، كان يوجّه الخطاب إليّ بين حين وآخر، وكانت ابتسامته الساحرة ابرز صفة فيه..

وتكررت زيارته، فكان سلوكه يثير الدهشة والارتياح في الوقت ذاته، فقد كان طبيعياً وتلقائيا، يتصرف وكأنه يعرفنا منذ زمن بعيد، كأننا أهله الذين غادرهم ثم عاد إليهم..

إثناء زياراته المسائية كان النعاس ـ أحياناً ـ يسرق أمي من الجلسة فتستسلم لإغفاءتها المتقطعة، فكان يتعمّد توجيه الخطاب إليها مازحاً :

ـ أليس كذلك يا خالة ؟.

فتنتبه من نومها مؤيدة فيضحك بوداعة ويستمر في كلامه

اصبح هذا القريب ـ والوحيد الذي نعرف من الرجال ـ جزءاً مهماً في حياتي، بدأت ارتاح إليه وأتعود على وجوده..

ولكن.. ماذا كان يعني بسؤاله ذاك ؟.

إن حـدود العلاقـة بيننـا لا تـسوغ لـه بعـد مثـل ذلـك الـسؤال، كنت قد اعتدت على الكثير من الملاحظات التي توجّه إلى فتاة مثلي ابتداء من الأسئلة الفضولية وانتهاء بالدعوات المحبطة ((بابن الحلال)). ولكنها المرة الأولى التي توجّه لي هذه الملاحظة المحرجة من رجل.. لقد أدهشتني جرأته، ثم ما شأنه بي، فأنا لم اسأله لماذا لم يتزوج إلى الآن، ولماذا عاد بعد غياب وينوي الاستقرار بعيداً عن أهله ؟ فتلك شؤون خاصة لاعلاقة لي بها..

لقد قال لي يوماً وبجرأته المعهودة :

ـ أن تبقى فتاة مثلك دون ارتباط فذلك من سوء حظ الرجال..

إنه رجل لطيف، لا ينقصه حسن التصرف، ولكن حياته التي عاشها طويلاً في مجتمع أكثر انفتاحاً جعلته أكثر جرأة، تلك الجرأة التي كان يواجهني بها أحياناً، والتي كانت تجعل الدماء تغوص في شراييني، أما وقد بدأت بالتعود عليه فإن جرأته لم تعد تفزعني، حاولت هذه المرة أن أغالب إحراجي وأستمد بعضاً من ثقته لذا أجبته باسمة:

ـ ربما هم كذلك حقاً..

ومع الأيام بدأت أخشى تأثيره الطاغي عليّ، فقد وجدت نفسي أطيل التفكير فيه، أشعر بثقل الوقت الموحش الذي يمتد بشراسة بين لقاء وآخر، صرت أساءل نفسي عن سر تلك الرغبة

الغامضة لرؤيته، وذلك الشوق الضاري الذي يشدني إليه وأمنية ملّحة بأن تطول ساعات بقائه ؟.

بالأمس ضبطتُ نفسي متلبسة بأمر جعلني أحاسبها بشدة، فلقد لفتت نظري ـ وأنا أشتري يوماً بعض اللوازم من الصيدلية ـ علبة كُتب عليها ((لبشرة تشع نظارة)) فاشتريت المستحضر رغم غلاء ثمنه، وهذا إسراف لم أعود نفسي عليه.

في المساء عندما وضعت المستحضر سالت دمعتان ساخنتان فرسمتا خطين متوازيين على القناع الأبيض، وبدأت بتقريع نفسي:

ما الذي افعله ؟، هل أحاول أن أبدو جميلة في نظره، هل أصبحت أصغي ـ ومن أجله ـ لنداء أنوثتي التي أهملتها طويلاً ؟

حالة التلبس تلك جعلتني أستوقف ذاتي، بدأت بتعنيفها، وجلدها، حاولت التصدي لذلك الكيان الذي أخذ يضرب بجذوره في أعماقي بعتو، وضعت بيني وبين مشاعري المتنامية أسلاكاً شائكة لكي أمنعها من أن تكتسحني، ولكي أكون أشد حسماً أمعنت بتعذيب ذاتي أخذت اذكّر نفسي بعيوبها ونواقصها الموجودة وغير الموجودة، أبالغ في تجسيمها وتهويلها،وأستحضر في مخيلتي كل ما كان يتميز فيه قريبي من جاذبية وفتنة، فلقد كان بارعاً من كل الزوايا، أردت أن تهولني المقارنة ويهزّني الفرق الشاسع بيني وبينه، صرختُ في نفسي :

ـ ماذا تملكين لتقدميه إليه غير سنوات عمرك المرهقة بوجعها المزمن، وهذه القدرة الخرافية على الحب والتي تذهلك الآن ؟

لكن محاولاتي فشلت كلها ، وما في أعماقي كان سيلاً لا تزيده الأحجار التي تعترض سبيله إلاّ قوة واندفاعاً.

هل هذا هو الحب ؟ وهل هو ما ينقصني، والذي جعل قريبي يبدي ملاحظته تلك، هل كان يريدني إن أبحث عن الحب وأن أسعى للحصول عليه ؟.

الحب.. لم يكن يوماً احتمالاً وارداً في حياتي، فقد كان كامناً في قلبي جرحاً غائراً أخفيه تحت ستار من القناعة الواهمة والاستسلام البليد ، كنت مستكينة لقدري بشكل مريع، اقسّم حياتي بين عملي كمدرسة للفنون وبين شغفي بالرسم والأشغال اليدوية ، حوّلت بيتنا الصغير إلى لوحة بارعة تثير الإعجاب وإن كانت تخفي كهفا مظلما بارداً ، حتى أنا لم اشعر بوجوده وإذا بي أكتشفه فجأة.

كنت واحدة من آلاف البشر يعبرون هذه الحياة وميضاً خاطفاً دون أن يشعر بهم الآخرون، ظننت أن الحب في أعماقي قد فارق الحياة اختناقاً ، يئست من صحوة قلبي وانبعاثه من جديد ، لم أعترف يوماً ـ حتى لنفسي ـ بحاجتي للحب، لم أجرؤ على أن أحلم به ، ولأن بابي لم يطرقه أحد فقد ظلّ موصداً..

قريبي.. اشترى بيتاً وبدأ بتأثيثه، كان يأخذ مشورتي في بعض التفاصيل، تعجبه آرائي ويشيد بذوقي، كان يسميني :
((فنانة العائلة))، ويشعر بالأسى لأن موهبتي ضاعت برأيه في التدريس.

أصبح شعوري نحوه يرهبني، يخيفني استحواذه الطاغي عليّ، صرت أتعمّد الصمت حين نلتقي، أترك الحديث يدور بينه وبين أمي، فمشاعري تكاد تكون مفضوحة فكنت أحاذر التطلع نحوه خشية أن تنفذ نظراته إلى أعماقي حيث يكمن سري.. كان يستحثّني على الحديث فازداد رغبة في الصمت، لا ادري هل يشعر بما حدث لي من تغيير أم لا..؟

صرت أحيا بروح أقلقها الوجع اللذيذ، لم أكن أدرك أن هناك آلاماً من المؤسف أن لا نشعر بها، يدهشني كيف تسلل الحب إلى عالمي بكل يسر، هل كنت أحمل حبه طوال عمري دون أن أشعر هل كان مغروساً في أعماقي منذ الأزل ؟. لا اصدق أن بين جلدي وعظمي كل تلك المساحات الشاسعة من العشق تنتفض اليوم شاكية ظمأها، وتطالبني بحقّها في الارتواء..

كنت أعيش فرحي الموجع عندما انقطعت زياراته، أسبوع، أسبوعين، لم يأتِ خلالهما، أحسست أني أدور في تيه تلاشت عن عيني حدوده، وجدت نفسي تطالبني به بإلحاح، وتسأل عنه بشغف

ضارٍ، يقفز فؤادي كلما طُرق الباب وأشعر بخيبة مدمّرة لأن الطارق كان شخصاً سواه..

حوّلني غيابه إلى كيان ممزق، تشتّتت روحي واجتاحني إعصار من القلق المرير، هل حانت لحظة الفراق وسيمضي كل منا إلى سبيله ؟ وتلك الأقدار التي قادت قدميه لدنياي المظلمة الباردة ليهبها نوراً ودفئاً عادت وحوّلت تلك الخطى إلى طريق آخر ؟

هل سيزورني يوماً وكفّه بكف امرأة أخرى فأعود بعدها ليبتلعني كهفي المعتم وهُوّتي السحيقة ؟

هل كان حلماً سرقته مني يقظتي الشرسة وبددته صحوتي الظالمة؟.

بعد أسبوعين من الغياب الذي افقدني صوابي، فتحت الباب فوجدته أمامي كما وجدته في المرة الأولى، جميلاً، جذاباً، تشرق على قسماته المريحة ابتسامته العذبة، ولكنه هذه المرة كان يحمل بين ذراعيه باقة كبيرة من الزهور الغضّة..

خفّت أمي لاستقباله، فقد كانت تفتقده مثلي، أحسست أن قلبي يوشك على الإعلان عن سره، وإخراج كنزه الدفين ليلقيه بين يديه، ، تحدّث ـ كعادته بمرح وتلقائية عن اضطراره للسفر فجأة فلم يتمكن من إعلامنا ،ولأننا لا نملك هاتفاً فقد تعذر عليه الاتصال بنا..

تكلّم وكأنه يبدي أسفه، أشعرنا أن من حقنا أن نقلق عليه وأنه مدين لنا بتفسير واعتذار.. التفت إليّ قائلاً بحنان يتوهج له الجليد:

ـ ماذا كانت فنانتنا تفعل طوال فترة غيابي ؟

أجبته ـ بسري ـ

كانت تشتاق إليك وتنتظرك..

كان يتحدث عن سفرته، فجلست أصغي لصخبه اللذيذ الذي ملأ بيتنا الصامت، دفنت وجهي في باقة الزهور، شعرت بسطوة حبه، وأدركت فداحة الحياة إذا خلت من وجوده، كان يبتسم فوجدته حلماً وهبته السماء، بل هو أروع من حلم هو الحقيقة التي تضجُّ بالحياة والدفء، زوبعة ربيعية اجتاحت حقلي المتجمّد لتعدّه لموسم يزدان بالخضرة والخصب..

عندها قررت أن أعيش حلمي اللذيذ بكل فصوله، أن لا أفكر بلحظة فراق ظالمة تبعد أطيافه الحبيبة عن ناظري..

كل ما هو جميل وباهر بدأ بحلم سأستسلم لحلمي ولن أعود لعذابات يقظتي فمن الجنون أن نخشى الحلم ونهرب منه، يكفيني أنه موجود أمامي الآن، وإني كنت أول محطة يحطّ بها عند عودته، أبدى لي شبه اعتذار لأنه تأخر عني، لقد فكّر بي وهو بعيد وعاد يحمل لي أروع باقة زهور في الدنيا، فهل هذه بشائر الحب تحلّ في سمائي ؟

إن أوقاتي معه هي قطاف عمري، كنزي وشريان وجودي، وإن الفراق وهم لن أدعه يهزم هذا اليقين العذب الذي عليّ أن أتمسّك به ـ وبقوة - ..

إنه أمامي الآن يبتسم لي بصدقه وعفويته الآسرة، وإنني أنعم بقربه لذا سأقنع نفسي بهذا المقدار وأعيش فرحتي..

عندما استقرت مشاعري المضطربة عند هذا الحد نهضت من مقعدي وأنا احتضن زهوره الحبيبة وكأنني احتضن الوجود كلّه، قلت له بصوت أرعشته السعادة :

ـ أنت متعب، سأعدّ لك فنجانا من الشاي...

ذاكرة الورد

ضغطت أنفها على اللوح الزجاجي لنافذة السيارة،بدا مُفلطحاً كحبةِ تين مجففة، منظرها المضحك لم يبعثه على الابتسام، كان يقف ساكناً أمام بوابة البناية، لا يحمل وجهه أيّ تعبير..

قبل أيام كان لقاؤهما، حين اعترضت طريقه برعونة وهو ينزلق مسرعاً على زلاجته، صرخ بها محذّرا :

- **سأسقطك أيتها الغبية**، وبدل أن يسقطها سقط هو..

ضحكت، ، وقام هو ينفّضُ ثيابه حانقاً..

في اليوم التالي كان يجلس على جانب حوض الورود الحمراء يمسك بيده كيساً من رقائق البطاطا، عندما جلست إلى جانبه صامتة أعطاها حفنة، أخذتها دون ممانعة سألها :

- **ما اسمك ؟!**

- **ورد.**

- **وبدون** أن يسألها أردفت :

- **أنا في الصف السادس !!!**

شهق ! لأن سنواتها الخمس فضحتها بشكل سافر..

ـ أنا اكبر منكِ، ولكنّي فقط بالصف الرابع، أنت كاذبة!.

غضبت لأنه نعتها بالكذب، رمت الرقائق من يدها.

ـ لا ينبغي أن ترميها، حرام.

أخذ يلتقطها من الأرض فانحنت تساعده، رمتها في حوض الورد:

ـ سوف تأكلها الورود، ضحكا معاً وعادا إلى اللعب بعد أن شبك وردة حمراء في ضفيرتها..

لم يعد منظرهما معاً في الأيام التالية غريباً، فبين أحواض الورد في الفناء الخلفي، أو في الساحة الأمامية للبناية، ألف السكان صوتين يتراقصان فرحاً في ضحكات طفولية ترسم الابتسامة ـ قسراً ـ فوق ملامح من العسير أن تنفض عنها عبوسها.. تحرّكت السيارة ببطء، كفّان صغيرتان تلوّحان مودّعة، بعد مسافة قصيرة استلقت بضجر في أحضان أمها تمص إبهامها وتفتل خصلة من خصلات شعرها، استسلمت لنعاسٍ لذيذ يرافق المسافرين الصغار دائماً، يهدهدهم بوداعة وينسيهم لحظة الفراق.

عاد هو يراوح بتزلجه بين أحواض الورد، توقف فجأة، اقترب من وردة حمراء حديثة التفتح، مال برأسه نحوها، خيّل إليه إنه استمع إلى صوت ((**تنهيدة**)) !!

في الصباح الباكر

بزهو سنواتها الثماني عشرة، كانت تسير فرحة.

أخرجتها التواءات الأزقة الضيقة إلى الشارع العام، عبرته راكضة إلى الرصيف ذي الأحجار الملوّنة..

هذا الصباح ينتابها شعور غريب، تدهشها هذه المشاعر التي يولّدها في قلبها دفء الربيع، تشعر أن دماً آخر يجري في عروقها، دماً يندفع في شرايينها بعنف، وتحس باحتراقاته المحمومة عندما يمر عبر وجنتيها..

صدفة.. انتبهت إلى سيارته بلونها الرمادي المتميز وطرازها الحديث.

كان يقود سيارته ببطء كأنه يسايرها، بل لمحت انه كان مستديراً نحوها، هل كان يتطلّع إليها ؟

بدأ قلبها بالخفقان، ودمها الربيعي يسرع في دورانه حتى كاد يتفجّر عيوناً من مسامات جلدها. أسرعت في سيرها فبدت

راكضة، ضمّت حقيبتها إلى صدرها وكأنها تمنع قلبها من البروز من تحت ضلوعها معلناً عن خفقانه المتمرّد..

استدارت نحو الشارع فوجدته لا زال يسايرها، وعيناه تلاحقان خطوتها على الرصيف.

تساءلت:

ـ ماذا يريد مني ؟ الأستاذ الوسيم الذي خطف أفئدة تلميذاته جميعاً، هل من المعقول أن أكون قد لفُتُّ نظره من بين العشرات منهنّ ؟

تذكرت الأسبوع الماضي، عندما نزل من منصّة الدرس إثناء الشرح بخطوته الرشيقة وقوامه الجميل، وأقترب من كرسيّها بالذات، وعندما احتاج قلماً ليسجّل ملاحظة، استعار قلمها باسماً بعد أن انحنى وسكب في عينيها فيضاً من نظراته الآسرة، هل كان وراء تلك النظرة مشاعر استثنائية خُصّتْ بها من بين جميع زميلاتها الجميلات والمتميّزات ؟

مرة أخرى أخذت تهرول، كانت تهرب من حيرتها وتساؤلاتها:

ـ ماذا لو دعاها لتصعد معه في سيارته ؟

هل ترفض دعوة أستاذها المحترم فتكون بنظره فتاة متخلّفة لاتحسن فنّ اللياقة والمجاملات ؟ وإذا ركبت معه، كيف سيكون الوقع على زميلاتها عندما تصل إلى الكلية برفقته ؟

هل سيحسدنها ؟ أم سيندفعن لثرثرة عنها بما يسئ لها ، وقد تنتشر حولها الأقاويل والإشاعات ؟ يا للهول.. كيف ستتصرف في هذا المأزق الحرج ؟.

توقفت قرب بائع جرائد متجوّل، فقدماها على وشك أن تخذلانها ، التقطت أنفاسها وهي تتطلع إلى عناوين الصحف دون أن تبصر حرفاً ، وكادت أن تفقد وعيها عندما رأته يوقف سيارته ويقترب نحوها :

- يا الهي.. إنه يقترب..

ولكنه تجاوزها موجّهاً خطابه المملوء بالبشر على بائع الصحف، حيّاه بودٍ ووداعة :

- أيها العجوز، تصوّر، لقد أضعت مكان وقوفك، منذ نصف ساعة وأنا أجوب الشوارع بحثاً عنك،،

كالعادة يا صديقي الطيّب، ناولني صحف اليوم..

ناوله البائع الصحف وعاد إلى سيارته ماراً بها دون أن يلمحها أو يشعر بوجودها..

الثأر

في الشوارع التي لفّها الليل بوشاحه القاتم, فغرقت في بحر من الظلمات، كان الصمت يسايره خطوة بخطوة حتى لقد خُيّل إليه انه يستطيع أن يستمع إلى وجيب قلبه، هذا الهاجس جعله يضع راحة كفه اليمنى على جانب صدره الأيسر فتحسست أصابعه ـ بالصدفة ـ المحفظة التي كانت لا تفارق جيبه، كانت محفظة صغيرة بنية اللون تحتوي على مصحف صغير دُسّت بين صفحاته قصاصات صغيرة كتب عليها الكثير من الأحراز والأدعية، المحفظة ومحتوياتها كانت هدية من والدته أهدتها له عندما ودّعته خارجا من البيت متوجهاً إلى مصير مجهول, وقبل أن يغادر انحنى على مهد صغير مكلّل بالبياض وهمس بإذن رضيع يرقد فيه بكلمات لا يفهمها الصغير ولا يعيها، كانت الكلمات عبارة عن وعد يؤكده قسم....

وبعد عشر سنوات.. تقوده الخُطا هذه الليلة إلى الحي ذاته والأزقة الضيقة المعتمة ذاتها والتي يستطيع بالرغم من ظلامها أن

يتلّمس خطاه على أرضها الموحلة، وبالرغم من وحشتها وصمتها يجدها أليفة قريبة إلى قلبه, ففي هذه الأزقة كبر وقضى أيام طفولته ببراءتها وشقاوتها وعفويتها، داخل جدران هذه البيوت المتداعية التي تحفه يميناً وشمالاً أناس يحبهم، يتحرق شوقاً لرؤيتهم ويتلظى أسىً لفراقهم.

أحس بحركة خفيفة خلفه كان كلباً من كلاب الليل السائبة اجتازه ومضى راكضاً أمامه, وبدون أن يشعر تناول حجراً ورماه به صارخاً :

- أيها الكلب الجبان لم أعد أخاف الكلاب أمثالك.

أحدث صوت الحجر المرتطم بالأرض وصوت صراخه جلبة في جو الصمت المطبق حوله، ثم عاد كل شيء ساكناً كما كان.

وتذكر.. كيف كان يخشى الكلاب في طفولته لدرجة الهوس، فما أن يلحظ واحداً حتى تُشل قواه ويفقد القدرة على الحركة أو التصرف، وجاء دور أخيه، معلمه ومرشده الأول الذي علمه كيف يهزأ من خوفه ويتغلب على ضعفه، قال له :

- إن خوفك ينبع من أعماقك وإذا أردت أن تهزمه فعليك مواجهته وتذكر دائماً : إن أوهامنا هي التي صورت لنا مخاوفنا بصورة أكبر من حجمها الحقيقي، تحدى خوفك وسترى !.

غمره أخوه بحب أبوي رزين وعاطفة تحصّنها الحكمة، أثار في نفسه الفتية كوامن العزم والشجاعة، لكنه رحل عنه سريعاً

لأن هناك دعوة تبرز الرجال من مضاجعهم حاملين أرواحهم على الأكف، لكن روحه ظلّت ترافقه دائماً، وحيثما سار كان يشعر انه يقتفي خطاه ويسعى في إثره..

وصل إلى مدخل أحد الأزقة.. تسمّر في مكانه أمام عمود كهرباء منحنٍ في أعلاه بقايا مصباح محطم، مرة أخرى قفزت طفولته إلى سطح ذاكرته، طافت بخياله صورة أخيه مع شباب الحي يغمرهم ضوء المصباح الباهت يذاكرون دروسهم ويديرون حلقات نقاشهم، لكن العمود اليوم يبدو حزيناً ، منكفئاً كأطلال شاخصة في ديار خربة تبكي أناساً قضوا قربها ردحاً من الزمن ثمّ غادروها على عجل..

لكي يدخل الزقاق كان عليه أن يجتاز بركة من المياه الموحلة الآسنة فقد كانت جميع الدروب التي مر بها سابحة في الوحل غارقة في الظلام المتعمّد.

اجتاز البحيرة بمياهها القذرة غير عابئ بالبلل الذي أصاب قدميه، كان قلبه يشده إلى بيت من تلك البيوت المحقود عليها، وعندما وصله تلمّس جدرانه المتداعية بيد مرتعشة، وبدون وعي أخذ يقبل بابه المهترئ وعلا صوته باكياً، فاضت روحه الولهى دموعاً جادت بها عيناه فسقت عتبة الدار المتهدمة، فخلف هذا الباب المغلق أعز مخلوق على فؤاده الجريح.. الحبيبة المفدّاة، قد تكون الآن نائمة تحلم بلقائه، وقد تكون مسهدة كما يؤرق

الشوق أجفان المحبين فيحرمهم لذيذ الرقاد، ليس أمامه سوى أن يُفتح هذا الباب المتآكل بفعل الزمن والعوز ليلقي بنفسه التي لوعها الحنين في أحضان تلك الغالية فينسى ألم ومرارة السنوات العشر ولواعج الغربة والشوق ويغفر للزمن كل قسوته وعذاباته.

لكنه تذكر ما جاء من أجله وبسرعة استعاد وعيه ورشده, وعاد إليه اطمئنان النفس وثباتها فألقى على دار الأحبة نظرة أخيرة قد لا يجود الزمن الشحيح بمثلها، وبقدر ما أتاح له الظلام والدمع المترقرق بين جفنيه من نظر.. وعاد يسير بخطى ثابتة حثيثة إلى حيث كان بانتظاره اثنان من رفاقه، وعندما وصل إليهما ناولاه سلاحاً وذخيرة وانطلقوا جميعاً إلى هدفهم المحدد.

مع أنفاس الصبح الأولى وبينما كان الليل يجر أذياله الداكنة منحسراً بصمت وخشوع أمام الفجر الواعد؛ هجم ثلاثة من المجاهدين على أحد مراكز القمع والإرهاب في أحد الأحياء السكنية، وبينما كان الطرفان يتبادلان إطلاق النار كان أحد المهاجمين يصرخ وبصوت عال :

ـ كلاب مجرمون ,, لم نعد نخاف الكلاب الجبناء أمثالكم..

ارتفعت الشمس ضحىً فغمرت بكرمها وحنانها المعهودين حياً منزوياً فقيراً يضم بين بيوته المتواضعة المنسية بيتاً، جدرانه متداعية، وبابه مهترئ ,, وخلف ذلك الباب قلب أم يعيش حلم اللقاء.

عندما سحب الإرهابيون جثث القتلى.. كان من بينها جثة شاب أصيب بجانب صدره الأيسر فأحدثت الرصاصة ثقباً في.. محفظة.. صغيرة.. بنية اللون.. كان يحملها في جيبه...

الفهرس